الغزو النورماني للساحل الإفريقي (تونس وليبيا) في القرن السادس الهجري

أ.م.د. فراس سليم حياوي
جامعة بابل/كلية التربية الأساسية/قسم التاريخ

المقدمة

في مطلع القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي كان حكم النورمان قد توطد في جزيرة صقلية بعد أن انتزعوها من يد العرب المسلمين عام ٤٨٤هـ/١٠٩١م، وأنهوا بذلك الوجود العربي الإسلامي في هذه المنطقة والذي استمر لأكثر من قرنين من الزمان، وأخذوا يفكرون في السيطرة على أفريقية تحركهم دوافع دينية وإستراتجية واقتصادية، فضلاً عن الأطماع التوسعية منتهزين فرصة تذبذب إمارة بني زيري وتقلص مناطق نفوذها بسبب انشغالها بالصراع مع القبائل الهلالية التي غزت المغرب بحدود عام ٤٤٣هـ/١٠٥١م بأمر من الخليفة الفاطمي المستنصر بالله، الى جانب ضعف الدولة الفاطمية وانشغالها بالحروب الصليبية، وانشغال المرابطين في مواجهة الموحدين الذين ظهروا كقوة لا يستهان بها على مسرح الإحداث السياسية في المغرب الأقصى، وفي ظل هذه الظروف القاهرة وجد النورمان الفرصة مؤاتية لتنفيذ مشروعهم التوسعي في الانطلاق من صقلية نحو الساحل المغربي، فبدؤا بالاستيلاء على جزيرة خربة عام ٥٢٩هـ/١١٣٥م ومن ثم بقية الساحل الإفريقي، وبذلك أصبحوا بتماس مباشر مع مدن ذلك الساحل.

تعرض ساحل أفريقية لغارات النورمان المدمرة، مما جعل أهلها يلزمون مدنهم أو ينتقلون إلى المناطق الداخلية من البلاد، مع ضعف واضح لمركز المسلمين البحري المتمثل بإمارة بني زيري وتنامي ملحوظ في النشاط البحري للمدن الإيطالية (جنوه والبندقية وبيزا) بعد قيام الحروب الصليبية.

تبرز أهمية الموضوع في دراسة تاريخ امتنا العربية في جهة المغرب ودورها في مقاومة الغزو النورماني، والتي تلت فقدان المسلمين لجزيرة صقلية ووصول القبائل الهلالية وقيام دولة الموحدين.

تناول البحث الوضع السياسي والاقتصادي لأفريقية والنورمان على حد سواء قبل الغزو، ثم دوافع الغزو النورماني لمدن الساحل الأفريقي، وبداية احتلال مدن الساحل (صفاقس والمهدية وسوسة وغيرها) والجزر المقابلة له (ومنها جربة وقرقنة)، فضلا عن مدينة طرابلس الغرب، ومدى مقاومة أهالي تلك المدن للاحتلال النورماني وهم يُسطرون أروع صور المقاومة ضد الغزاة، وحفزهم على ذلك قيام دولة الموحدين وامتدادها شرقا، كما ساعدتهم الظروف في صقلية فوليام الأول (٥٤٩-٥٦١هـ/١١٥٤-١١٦١م) الذي خلف والده رجار الثاني يواجه مشاكل وإخطاراً كثيرة داخل صقلية وجنوب إنطاكية، وهكذا كان رد فعل المدن الأفريقية متخذا شكل ثورات تحررية منها ثورة صفاقس بزعامة عمر الفرياني عام ٥٥١هـ/١١٥٦م واسترداد طرابلس في عام ٥٥٣هـ/١١٥٨م مرورا بتحرير المهدية على يد عبد المؤمن بن علي أول سلاطين الموحدين عام ٥٥٥هـ/١١٦٠م وبذلك انتهى الاحتلال النورماني لمدن الساحل.

اعتمد البحث على المنهج التحليلي المعتمد على الاستنتاج والتحليل في استقراء الروايات، كما اعتمد على مجموعة من المصادر والمراجع العربية والأجنبية بعضها ذا فائدة كبيرة لا يمكن الاستغناء عنها، وبعضها ذوات فائدة ثانوية، ويتقدم تلك المصادر الكامل في التاريخ لابن الأثير(ت٦٣٠هـ)، لأنه حافل بمعلومات كثيرة عن أحداث صقلية، وفتحها وحروب العرب مع البيزنطيين في الجزيرة، وأشار إلى الأحداث السياسية الأخرى الخاصة بأمراء الجزيرة وكذلك تفاصيل عن الغزو النورماني إلى الساحل الأفريقي، ويليه كتاب البيان المغرب في إخبار المغرب لابن عذارى (كان حياً عام ٧١٢هـ)، وهو من الكتب المهمة التي زودت البحث بمعلومات قيمة عن الأحداث السياسية والاقتصادية، لاسيما وأن إخباره منقولة من مصادر لم يصل بعضها ألينا، كما هو يصرح بذلك، وكتاب العبر لابن خلدون(ت٨٠٨هـ)، الذي يطابق ابن الأثير في

كثير من النصوص مع بعض التغير في التعبير، ومعنى هذا إنهما استقوا معلوماتهم من أحدى الكتب المفقودة التي كتبت عن تاريخ صقلية ومنها (تاريخ صقلية) لأبي علي الحسن بن يحيى الصقلي المعروف بابن الخزاز والتي ذكره ياقوت الحموي(ت٦٢٦هـ)، في معجمه مرات عدة. كما اعتمدنا على كتاب المؤنس للقيرواني وكذلك كتاب رحلة التجاني، للتجاني(كان حيل في عام٧٠٨هـ)، ومصادر كثيرة أخرى لا يسمح المجال لذكرها، أما بالنسبة للمراجع الحديثة فقد اعتمدت الدراسة على بعض المصادر الأجنبية إضافة إلى كتاب (تاريخ صقلية الإسلامية) لأحمد عزيز، والذي أفاد البحث فائدة مهمة لاسيما ما يتعلق بتاريخ صقلية في المدة التي نحن بصددها إذ اعتمد على جملة من المصادر الأجنبية التي لم نستطع الحصول عليها، وربما ذلك من الصعوبات التي واجهت الدراسة.

أولاً: الوضع السياسي والاقتصادي لأفريقية قبل الغزو النورماني:

ظهرت في المغرب العربي الثورات القبلية والمذهبية[١]، في حين اقتصر سلطان بني زيري[٢] على ما تبقى لهم من أفريقية، إذ كانوا محاطين بالأعداء من الغرب والشرق، ذلك إن عداء بني حماد[٣] لأبناء عمومتهم كان مستمراً، وكان في (نفوسهم من الضغائن والأحقاد من باديس ومن بعده من أولادهم ما يرثه صغير عن كبير)[٤]، في حين كان (بنو خزرون[٥]) يقضون مضجعهم من الشرق، واثر ذلك في استنزاف قوى المغرب العربي بصفته عامة وأفريقية الزيرية بصفة خاصة، مما جعلها في حاجة ماسة إلى طاقة نشطة ودم جديد تجدد بها قواها في صراعها المقبل مع النورمان، الذين كانوا في تلك الآونة يجمعون قواهم في جزيرة صقلية، وذلك استعدادا لشن هجوم كبير على المسلمين في مدن شمال إفريقيا.

حصلت أفريقية على هذه الطاقة البشرية من هجرة القبائل العربية الهلالية[٦] إليها عام ٤٤٣هـ/١٠٥١م[٧]، وهي الهجرة التي تلت انفصال المعز بن باديس عن الدولة الفاطمية عام ٤٣٩هـ/١٠٤٧م والتي لعبت دورا ايجابيا في تاريخ أفريقية، فبعد انتصارها الكبير في معركة (حيدران[٨]) اجتاحت تلك القبائل ساحل أفريقية وأقام رؤساؤها إمارات مستقلة لهم في قابس وصفاقس والقيروان وباجة وقرطاج وبنزرت[٩].

هكذا انقسمت بلاد المغرب إلى دويلات طوائف على نحو ما حدث في الأندلس عقب سقوط الدولة الأموية في قرطبة، فاستولى (بنو هلال) على المناطق في الداخل من قابس إلى المغرب، وظل بنو زيري يحتفظون بالمهدية بعد إن انتقلوا إليها من القيروان، ولم تعّد سلطتهم تتجاوز الشريط الساحلي الذي يشمل المهدية وصفاقس وقابس وجزيرة جربة، ووجد بنو حماد الذين انتقلوا من القلعة إلى بجاية في مدة قدوم بني هلال الفرصة لضرب بني زيري، فتمكن الهلاليون من الإمارة الزيرية[١٠]، بينما استعان بنو حماد بهم وسمحوا لهم بدخول بلادهم[١١]، ما نتج عن هجرة بني هلال إلى أفريقية قيام حقبة من الاضطراب السياسي والاقتصادي في أفريقية والمغرب الأوسط، وأخذ بعض أمراء الطوائف المتجاورين في المدن الأفريقية مثل صفاقس وقابس وقفصه وطرابلس، يضربون الدنانير بأسمائهم في مدنهم[١٢]، فضلاً عن مدن أخرى[١٣].

ولكن ومع انقطاع موارد أفريقية من ذهب السودان الغربي بعد تحول طرق القوافل عبر الصحراء إلى المغرب الأقصى بعد قيام دولة الموحدين، أصبح الدينار المضروب في المهدية[١٤] متدنيا لنقص نسبة الذهب فيه وكان ذلك في أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، ولهذا أصبح التجار يبيعون سلعهم بالدنانير المهدوية، ثم يشترون عملة متداولة دولياً وبخاصة الدنانير أو المثاقيل المرابطية إذ أخذت تحل محل الدنانير الفاطمية في تجارة البحر المتوسط[١٥].

أما العلاقة بين الدولة النورماندية والدولة الزيرية فقد اتسمت بالهدوء نتيجة انشغال الدولتين بحل مشاكلهما الداخلية فالنورمان كان عليهم التصدي لأطماع الإمبراطورية البيزنطية[١٦]، أما بالنسبة للدولة الزيرية فقد أصابها الضعف كما ذكرنا نتيجة صراعها المحتدم مع جيرانها الحماديين والفاطميين فضلا عن ذلك، فقد استطاع بنو جامع الهلالين الاستقلال بمدينة

قابس بمعزل عن سلطة الزيريين وأصبح نفوذ إل زيري لايتعدى المهدية وبعض المناطق المجاورة[١٧]، وبقيت العلاقة ما بين الطرفين على ما هي عليه إلى حدود عام ٥٠٩هـ/١١١٥م وهي العام التي تولى بها علي بن يحيي حكم الدولة الزيرية، وفي عهد الأمير المذكور حدث اختلال في موازين القوى في غرب البحر المتوسط وانتقلت السيادة إلى أيدي النورمان بعد أن امتد نفوذهم إلى معظم نواحي الحياة في دولة بني زيري ووصلت غاراتهم للسواحل المغربية ليعرقلوا حركة الجهاد الإسلامي ضد بلادهم. قابل بنو زيري تلك الغارات بإعداد الأساطيل، ولكن غزو بني زيري لسواحل صقلية وجنوب إيطاليا كان عديم الأثر، ذلك لأنه منذ عام ٥٠٧هـ/١١١٣م كان البحر المتوسط بحيرة نورمانية وصارت السيادة للقوى البحرية الأوربية وتجولت فيه أساطيل صقلية، وتدخلوا في الصراع الدائر بين أمراء أفريقية وساعدوا بعض حكام تلك المدن ضد البعض الآخر[١٨]، إلا أن محاولاتهم الأولى بقيادة رجار الثاني[١٩] ما بين عامي (٥١١-٥٢٠هـ/١١١٧-١١٢٦م) لإحراز موطئ قدم على ساحل الشمال الإفريقي باءت بالفشل[٢٠].

مما تقدم يتضح أن الفوضى السياسية والاجتماعية كانت من أهم الأسباب التي جعلت النورمان يتطلعون إلى امتلاك أفريقية والقضاء على الإمارة الزيرية.

ثانياً: أوضاع النورمان في صقلية:

بعد استيلاء النورمان على جزيرة صقلية ساد الجزيرة الهدوء لمدة عشر سنوات (٤٨٤-٤٩٤هـ/١٠٩١-١١٠١م) وأبدى (رجار الأول[٢١]) تسامحا مع مسلمي صقلية، ويذكر احد الباحثين المختصين قي هذا المعنى نحو قوله: ((ويمكن القول إجمالاً بان المسلمين الذين عاملهم رجار بتسامح ظلوا مطيعين له، وكان العنصر الإسلامي في جيشه بارزاً))[٢٢].

كان النورمان أقلية بالنسبة للعرب الموجودين في الجزيرة، ولهذا السبب استعمل رجار الأول القوات العسكرية الإسلامية للاستفادة منها في فنون الحرب والقتال ((حيث عمل المهندسون العسكريون المسلمون في خدمة النورمان وصنعوا لهم أبراجا ومجانيق متحركة ليستعملوها في عمليات الحصار))[٢٣]، وعلى أية حال سرعان ما أنضجت سياسة النورمان في إيجاد مناخ من التسامح والتواجد للمسلمين في ظل الحكم النورماني، فقد حرص رجار الأول على كسب مشاعر المسلمين لاسيما أهالي المدن ((فكان من مصلحة رجار الأول أن يستميل المسلمين ليسانده ضد النبلاء من النورمان إذا هم حاولوا الخروج عن الطاعة، كما كان يحدث كثيراً للملوك في بعض مماليك أوربا التي تفشّي فيها نظام الإقطاع آنذاك وكان أفراد البيت النورماني الحاكم انتهازيين إلى أبعد حد، فقد أحسنوا معاملة المسلمين طالما كان ذلك في مصلحتهم الشخصية))[٢٤]، ومع ذلك فإن رجار الأول بادر إلى تحويل مسجد بلرم[٢٥] إلى كنيسة وكذلك فعل ببعض المساجد بالمدينة ((وهذا موجز للرحمة التي كانت أوربا تقدمها دائما للعرب، فهي مشروطة بالقضاء على دينهم وفي عزلهم ليكونوا جماعة ذات كيان منفصل))[٢٦]، ويبدو إن ذلك كان تمهيدا لطرد المسلمين من الجزيرة من خلال تحديد ممارستهم لطقوسهم الدينية أو تمهيدا لتحويلهم إلى المسيحية.

أما من الناحية الاقتصادية فقد كان لأستيلاء النورمان على صقلية أثره السيئ على أوضاع المسلمين الاقتصادية والمعيشية، إذ دمرت القرى والمزارع على نطاق واسع في الجزيرة أثناء القتال، وفرض على المسلمين دفع الجزية مرتين في العام مثل اليهود، مما أدى إلى هجرة إعداد كبيرة منهم إلى أفريقية، وأدخل النورمان النظام الإقطاعي إذ منح رجار الأول الفرسان والكنيسة أراضي واسعة كانت للمسلمين وأتخذ الإقطاعيون المسلمين عبيداً لهم في أراضيهم، أما أهل المدن فكانوا أحسن حالا من إخوانهم في الأرياف وذلك بموجب اتفاقيات حفظت لهم حقوقهم المدنية والدينية ولو إلى حين[٢٧].

وعلى الرغم من أن أكثرية السكان في الجزيرة من المسلمين، فإن الرومان حاولوا تغير التركيبة السكانية على حساب المسلمين وذلك بعد هجرتهم إلى أفريقية الزيرية والى الأندلس والمشرق الإسلامي، إذ جاءت جماعات من النورمان من شمال غرب فرنسا، فضلا عن جماعة من جنوب إيطاليا وأثر هؤلاء في الحياة إذ تحّمل منهم المسلمون الاضطهاد

والعذاب طوال الحكم وذلك لتعصبهم الشديد لدينهم ضد المسلمين[٢٨]، ويمثل شعور العرب المسلمين واستيائهم من وضع صقلية قول احد الشعراء[٢٩]:

عشقت صقلية يافعـا وكانت كبعض جنان الخلودِ

فما قُدِّر الوصل حتى اكتهلت وصارت جهُنم ذات الوقودِ

ويتضح من قول الشاعر إن صقلية تحولت إلى خراب واختل الأمن فيها بعد إن كانت تمثل قمة الحضارة العربية الإسلامية، وبدأت الحروب بين المسلمين وجنود الاحتلال النورماني إذ كانت لا تزال حصون في أيدي المسلمين ومنها حصن طبرمينة[٣٠] وحصن اطرابنش[٣١]، وكان هذان الحصنان مصدر قلق بالنسبة لرجار الأول، إذ كان هؤلاء المسلمون يتلقون الدعم والتشجيع من الإمارة الزيرية[٣٢] في المهدية، وكان جنود بني زيري يغيرون من وقت لآخر على سواحل إيطاليا الجنوبية، وسواحل صقلية وهذا ما حدث في عام ٤٦٧هـ/١٠٧٤م[٣٣]، وكذلك عام ٤٦٨هـ/١٠٧٥م[٣٤]، ويتضح إن الدافع من وراء هذه الحملات هو استرجاع الجزيرة من أيدي النورمان، غير إن المصادر العربية لم تذكر شيئاً عن هاتين الغزوتين في حين تذكرها المصادر الأوربية، وتذهب إلى ابعد من ذلك بذكرها لمعاهدة صداقة بين رجار الأول وتميم بن المعز والتي على أثرها أرسل رجار شحنة من قمح صقلية إلى المهدية[٣٥]، ويبدو إن عقد هذه المعاهدة جاءت بعد إن كثّف بنو زيري غاراتهم على الجزيرة إذ عدت هذه الاتفاقية نوعاً من الهدنة لتامين جانبهم إلى حد ما بسبب عدم استقرار الوضع في الجزيرة وضعف المقاومة النورمانية، ويظهر إن الاتفاقية كانت محترمة من كلا الطرفين بدليل إن رجار الأول عندما رأى ((أثناء حصار طبرمينة أربع عشرة سفينة أفريقية تقترب من صقلية أرسل إلى قائد هذه السفن رسالة يسأله فيها عن الغرض الذي يرمي إليه من وراء هذا الغزو، فكان الجواب انه ليست لديه أية إغراض حربية...))[٣٦]، ولهذا اقتنع ولم يبد أي تحرك تجاه تلك الحملة ما دامت لا تعكر جو الصفاء بين الطرفين ولا تودي إلى خرق امن بلاده وهي عملية عتبارية، وكذلك لم يشترك رجار في أي حركة ضد بني زيري ومنها عام ٤٨٠هـ/١١٧٨م[٣٧].

لم يشترك رجار الأول في الحملات الصليبية في المشرق لأسباب اقتصادية من ناحية و أسباب داخلية من ناحية أخرى، ويتضح ذلك في قول ابن الأثير ((فلما كانت عام تسعين وأربعمائة خرجوا إلى بلاد الشام وكان سبب خروجهم أن ملكهم بردويل[٣٨] جمع جمعا من الإفرنج ... فأرسل إلى رجار يقول له: قد جمعت جمعا كثيرا، وأنأ واصل إليك، وسائر من عندك إلى أفريقية افتحها، وأكون مجاوراً لك))[٣٩]، ولكن رجار لم يقبل وقال لمستشاريه: ((إذا وصلوا إليَّ احتاج إلى كلفة كثيرة، ومراكب تحملهم إلى أفريقية، وعساكر من عندي أيضا، فإن فتحوا البلاد كانت لهم، وصارت المئونة لهم من صقلية، وينقطع عنّي ما يصل من المال من ثمن الغلات كل عام، وأن لم يفلحوا رجعوا إلى بلادي وتأذيت بهم ... وأحضر رسوله، وقال له: إذا عزمتم على جهاد المسلمين، فأفضل ذلك فتح بيت المقدس، تخلّصونه من أيديهم ويكون لكم الفخر))[٤٠]، ويتضح من كلام ابن الأثير إن رجار الأول لم يريد التعرض لأي خطر أو مجازفة، كما لم تكن لديه السفن الكافية لأنها كانت ضرورية لمواجهة أي خطر محتمل، لاسيما وأن الوضع العام في الجزيرة لم يكن مستتبا، ومع هذا فإن رجار الأول كان يفكر بواقعية ويقدم مصلحته ومصلحة بلاده على كل شيء، لأنه فكر لو نجح الإفرنج في مشروعهم، فإن صقلية قد تفقد الاحتكار الذي تمتعت به في أفريقية، لان في حالة انتصار الإفرنج ستنتقل التجارة إليهم لكونهم المنتصرين والمتحكمين بالبلاد التي يحتلونها هذا من ناحية، كذلك كان يفضل الاحتفاظ بعلاقته مع بني زيري ويظهر بأنه المحترم للعهود في هذه الحقبة من ناحية أخرى، ولهذا قال لأصحابه: ((إذا لم يفلحوا رجعوا إلى بلادي، وتأذيت بهم ويقول تميم غدرت بي، ونقضت عهدي، وتنقطع الوصلة والإسفار بيننا))[٤١]، فضلاً عن خططه المستقبلية في احتلال أفريقية ويبدو ذلك واضحاً من قوله: ((وبلاد أفريقية باقية لنا متى وجدنا قوة أخذناها))[٤٢].

ثالثاً: دوافع الغزو النورماني:

كان وراء احتلال النورمان لمدن ساحل الشمال الإفريقي دوافع دينية واقتصادية وإستراتجية، فضلاً عن الأطماع التوسعية، وساعدهم على ذلك ضعف الدولة الفاطمية في مصر وقيام الحروب الصليبية في المشرق وانشغال المرابطين بحروبهم مع الموحدين إلى جانب ضعف الإمارة الزيرية وانشغالها هي الأخرى بمشاكل مع جيرانها، وفيما يلي الدوافع الرئيسة للغزو:

١. الدافع الديني:

يوجز ابن الأثير إن قيام الحروب الصليبية في أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي: ((كان ابتداء ظهور دولة الإفرنج واشتداد أمرهم وخروجهم على بلاد الإسلام واستيلائهم على بعضها، عام ثمان وسبعين وأربعمائة فملكوا مدينة طليطلة[٤٣] وغيرها من بلاد الأندلس ... ثم قصدوا عام أربع وثمانين وأربعمائة جزيرة صقلية وملكوها ... وتطرَّفوا إلى إطراف أفريقية، فملكوها منها شيئاً وأخذ منهم [النورمان]، ثم ملكوا غيره على ما نراه، فلما كان عام تسعين وأربعمائة خرجوا إلى بلاد الشام))[٤٤]، ومما يتقدم يتضح ما ذكره ابن الأثير أن هجمات مسيحية صليبية منظمة على أرض الإسلام من بلاد الشام شرقا إلى بلاد الأندلس غرباً مروراً بجزيرة صقلية وشمال أفريقية غرضها الاستيطان والسيطرة.

لم يشترك رجار الثاني في الحروب الصليبية في المشرق لأنه وجد في احتفاظه بعلاقاته مع مدن وجزر الساحل الإفريقي أفضل من مشاركته في تلك الحروب لاسيما وأنه مرتبط باتفاقيات تجارية مع أمراء تلك المدن[٤٥]، ولكنه وجد فيما بعد باحتلاله للمراكز التجارية الرئيسة على الساحل سيجعله مسيطر على الطرق التجارية إلى الجنوب فضلاعن تخلصه من الوكلاء وغيرهم، وعليه فقد نحا منحى السيطرة المباشرة والاحتلال، وهذا ما غيّر وجهة نظر البابوية عليه لأنها كانت ترى في تلك التحركات الاستعمارية في مدن وجزر الساحل الإفريقي ما يتفق مع غايات وأهداف الكنيسة من الحروب الصليبية[٤٦]، حاول رجار ربط جبهة المسلمين في الأندلس وشمال أفريقية بجبهة واحدة، ولهذا وجب عليه التحالف مع بعض أمراء الأندلس[٤٧]، وحصل رجار على كسب رضا الكنيسة والأمراء المجاورين في آن واحد.

٢. الدافع الاقتصادي :

ازدهرت الحياة التجارية في صقلية نتيجة صلاتها التجارية مع مدن الساحل الإفريقي والتي استمرت مدة طويلة[٤٨]، بالرغم من وجود الخلاف الديني والسياسي الذي يرجع إلى كون أفريقية المنفذ الطبيعي لقمح صقلية، فقد كان يبادل بـ(الذهب[٤٩]) أولا ثم (الرقيق[٥٠]) ثانيا لدرجة إن واردات صقلية من الذهب كانت مصدرا لا يستهان به لحصول أوربا على كميات من الذهب لضرب نقودها[٥١]، فضلا عن دعم النقد في صقلية نفسها[٥٢]، إلى جانب ازدياد عدد السفن التجارية وما كانت تدره من ضريبة العشر على تلك السفن المبحرة بين البلدين[٥٣]، ومع هذا فإن التجارة لم تكن كافية لرجار، وعليه أخذ ينظر إلى الغزو لإثبات جدارته في السيطرة المباشرة في أي فرصة وقد تحقق له ذلك في عام ٥١١هـ/١١١٨م.

٣. الدافع الاستراتيجي :

حاول النورمان السيطرة على موانئ شمال أفريقية المقابلة لصقلية على ساحل تونس وطرابلس وذلك عام (٥١١-٥٢٠هـ/١١١٨-١١٢٧م) من أجل ضمان السيادة البحرية لأسطولهم في وسط البحر المتوسط من جهة تحكمهم في الملاحة بين شرق المتوسط وغربه من جهة أخرى[٥٤]، وبذلك أراد إن يؤمن حكمه في صقلية من إمكانية ثأر المسلمين ومحاولاتهم استرداد صقلية، وجد رجار إن سيادة الأسطول النورماني في البحر المتوسط سيؤمن المنطقة فضلاً عن تخلصه من أسطول بني زيري الذي كان أقوى الأساطيل الإسلامية في البحر المتوسط آنذاك[٥٥]، نجده يبدأ باحتلال مدن

المنطقة العربية مستغلا العلاقات التجارية والدبلوماسية بينه وبين الدولة الفاطمية في مصر من ناحية وانشغالها بالحروب الصليبية في المشرق من ناحية أخرى، فإن أهالي المدن المحتلة لم يستسلموا للاحتلال النورماني بل جاهدوا حتى تحرير المنطقة بشكل كامل.

رابعاً: بدايات الغزو النورماني:

سبق الغزو النورماني للساحل الإفريقي حملات بحرية ضد عدد من مدن الساحل ومنها عام ٥٠٦هـ/١١١٣م[٥٦]، والذي أدى إلى احتلالها في آخر الأمر، فقد قام الأسطول النورماني بقيادة (جورج الإنطاكي[٥٧]) بنشاط بحري ضد مراكب المسلمين في البحر المتوسط والذي شجعهم على ذلك كثرة المنازعات القائمة بين أمراء بني زيري وجيرانهم[٥٨]، والذي يتفق مع تطلعات النورمان نحو شمال أفريقية منذ أن تم لهم الاستيلاء على صقلية عام ٤٨٤هـ/١٠٩١م[٥٩].

كانت الظروف قد أرغمت بني باديس على إنشاء أسطول قوي للحفاظ على سواحل بلادهم وأموالهم في الداخل، وساعد سقوط صقلية على نزوح كثير من سكانها إلى دولة بني زيري والانضمام إلى أسطولها الذي كان يغير على السواحل الإيطالية وعلى جزر سردينية وصقلية، مما دفع هذه الدول للقيام بحملات بحرية ضد بني زيري أصحاب المهدية، فقد تحالف أهل كل من جنوه وبيزا الإيطاليتين واستطاعوا عام ٤٩٨هـ/١١٠٤م من مهاجمة المهدية[٦٠]، ومعهم ثمانية وعشرون سفينة، ولكن الأسطول الزيري كان لهم بالمرصاد إذ خرج إليهم وهزمهم وقتل كثيراً منهم ولاذ الباقون بالفرار وربما كان هذا الهجوم حافزاً مهماً لـ(يحيى بن تميم[٦١]) (٥٠١-٥٠٩هـ/١١٠٧-١١١٦م) ليقوم بتجديد سفن الأسطول والإكثار من بناء السفن والاستعداد لغزوة جهادية وتأديبية، إذ هاجم السواحل الإيطالية عام ٥٠٣هـ/١١٠٩م واستمرت تلك الغارات البحرية والتي من خلالها اجبر أهل جنوه وبيزا وصقلية على دفع الجزية سنويا، ولم تسلم بلاد الروم[٦٢] من تلك الغارات[٦٣]، ولكن السلطان يحيى لم يحكم سوى ثمانية أعوام وذلك لسوء حظه، إذ قتل من قبل إخوته[٦٤]، وكانت ولاية العهد سبباً مباشراً في نهاية حكمه، وفي عهده تحسنت العلاقة مع الفاطميين في مصر والمهدية وحل الوئام محل القطيعة، وقبل يحيى الصلح والولاء حتى لا تتعرض دولته لمثل ما تعرضت له أيام جده المعز بن باديس[٦٥]، واستقبل عام ٥٠٥هـ/١١١٢م رسول صاحب مصر وهو يحمل هدية قيّمة إليه[٦٦].

تولى الحكم ابنه (علي بن يحيى[٦٧]) (٥٠٩-٥١٥هـ/١١١٦-١١٢١م) وأخذ يدير شؤون البلاد في المهدية، وفي عهده اختل التوازن العسكري في غرب البحر المتوسط وانتقل إلى أيدي النورمان بعد أن امتد إلى معظم نواحي الحياة في دولة بني زيري ووصلت غاراتهم للسواحل المغربية ليعرقلوا حركة الجهاد الإسلامي ضد بلادهم ،وقابل بنو زيري تلك الغارات بإعداد الأساطيل، ولكن غزو بني زيري لسواحل صقلية وجنوب إيطاليا كان عديم الأثر، ذلك لأنه منذ عام ٥٠٧هـ/١١١٣م كان البحر المتوسط بحيرة نورمانية وصارت السيادة فيه للقوى البحرية الأوربية وتجولت فيه أساطيل صقلية، وتدخلوا في الصراع الدائر بين أمراء أفريقية وساعدوا بعض حكام تلك المدن ضد البعض الآخر[٦٨]، إلا أن محاولاتهم الأولى بقيادة رجار الثاني ما بين عامي (٥١١- ٥٢٠هـ/١١١٨-١١٢٧م) لإحراز موطئ قدم على ساحل الشمال الإفريقي باءت بالفشل[٦٩].

ساءت العلاقات بين علي بن يحيى صاحب المهدية و(رافع بن مكي المتغلب[٧٠]) على قابس[٧١] عام ٥٠٠هـ/١١٠٦م بسبب رغبة علي بن يحيى في احتكار التجارة البحرية ولهذا وقف ضد رافع وطموحاته البحرية[٧٢]، وهذا الأمر اغضب رافعاً وجعله يلجا إلى رجار الثاني طالباً منه المساعدة فوعده بذلك، ويضيف التجاني قائلاً: ((وعلم رافع بذلك فكتب إلى رجار صاحب صقلية يسأله الاعانه على علي ويخبره انه إنما انشأ تلك السفينة لبعث هدية يحب انه يهديها إليه، فبعث رجار إلى قابس أسطولا ضخماً لنصرة رافع ... وكان ذلك من اشد الأسباب في الوحشة التي وقعت بين رجار وعلي وابنه الحسن بعده حتى أدت إلى تغلب الروم(النورمان) على المهدية))[٧٣]، ويبدو إن رافعاً كان من الذين لا يملكون وازعاً وطنياً ولا دينيا وذلك باستنجاده برجار الثاني المتربص بأفريقية لتثبت إقدامه على سواحلها الشمالية، وبالفعل

وصل أسطوله إلى قابس واستقبل من قبل رافع بالفرح والسرور، ولكن الفرح لم يكمل إذ وصل أسطول المهدية على الفور وهزمهم وملّك قطعاً من أسطول رجار وقتل عدداً من رجاله، وهكذا فشلت الحملة النورمانية الأولى والتي كانت بداية العداء بين النورمان وأمراء أفريقية من بني زيري، وصور لنا احد الشعراء وهو يمدح الحسن بن علي قائلاً[٧٤]:

ِليهَ ْنَ المعالي إن تملّك رقها عليَّ بن يحيى بالحجا والتكرِّمِ
جرى وجرى صيدُ الملوك فبذَهم إلى غاية في المجد لم تتقدمِ
وصَمَم تصميم الحسام مبادراً لإطفاء نار أذنت بالتضرمِ
تعدى على الاعلاج في بحر فابس وساء إليهم في الخميس العرمرمِ
قولوا على الإدبار كلاً واجعلوا بناب نبا عنُهم وظُفِر مقلمِ

كان الانتصار الذي أحرزه أسطول المهدية على نظيره النورماني سبباً مهما في اهتمام علي بأسطوله وتقويته استعداداً للحرب، فعمر عشرة مراكب حربية وثلاثين غراباً وشحنها بالرجال والعدة[٧٥] ، وأستخدم (النفط[٧٦]) في هجومه على قابس وطرد رافع منها، ويبدو انه أراد إن يحسم الداء قبل استفحاله وذلك باحتلال قابس وطرد رافع منها.

أعد علي بن يحيى أسطوله لمهاجمة رافع في عام ٥١١هـ/ ١١١٨م والذي لم يجد ناصراً ((فأرسل جماعة من وجوه قومه راغباً في المصالحة فلم يجبه علي إليها، فرأى انه ليس قبلَ له بقتال علي فقصد إلى القيروان[٧٧]))[٧٨]، ويبدو مما تقدم إن الحرب لم تقع بين علي ورافع، وأن الأخير فر هارباً خوفاً من علي، في حين يذكر ابن الأثير إن رافعاً هاجم المهدية فانكسر وانهزم إلى القيروان[٧٩]، ويذكر ابن عذارى في هذا المعنى فقال: ((نزل [رافع] على المهدية ببيوتة، ومن ساعدته من عشيرته ... ووقعت الحرب بين الفريقين ... والتقى الجمعان ثم ولى رافعاً قاصداً إلى القيروان))[٨٠]، ومهما يكن من أمر فإن رافعاً فر إلى القيروان، وسلموه إمارة المدينة[٨١]، ولكن علي بن يحيى لاحقه بقبائل بني هلال بعد أن وزع لهم الأموال فبدءوا القتال ضد رافع واقلقوا راحته، فتدخل الأمير ميمون الصخري[٨٢]، بالصلح بين علي ورافع ((فانصلح وارتفعت بينهما الفتنة))[٨٣]، ولم تذكر المصادر عن مصير رافع بعد تملكه القيروان عدا ابن الأثير الذي ذكر إن رافعاً دخل القيروان بعد قتال نشب بينه وبين أهلها وأن علي بن يحيى قد طرده منها، وبعد ذلك حدث الصلح والذي بموجبه رجع رافع إلى قابس[٨٤].

ولكن العلاقة ساءت بين علي بن يحيى والنورمان في صقلية عام ٥١١هـ/١١١٨م وذلك بسبب رافع بن مكي، والتي على أثرها قام بسجن (الوكلاء التجاريين الصقليين[٨٥]) في أرضه وصادر أموالهم، ثم أفرج عنهم، إلا أن رجار الثاني طالّب بالكثير من المطالب الثقيلة التي رفضها علي ولهذا كان رد فعل رجار بالتهديد والوعيد بشن حرب بحرية ضد المهدية، أما علي فقد أجابه برد مماثل وتوّعد بالهجوم على صقلية، وبالفعل تم الاستعداد للحرب المرتقبة التي لا مفر منها، ولكن الأمور تبدلت لكلا الطرفين، فقد وجد رجار في كلام الأمير علي شيئاً من القوة والجرأة، ويؤكد ابن عذارى في هذا المعنى إن رجار الثاني أرسل عام ٥١٢هـ/١١١٩م رسولاً إلى علي بن يحيى ((يلتمس تجديد العقود وتأكيد العهود ويطلب أموالاً كانت له موقفه بالمهدية وذلك بعنف وغلظة، فردّ علي رسوله دون جواب))[٨٦]، ولهذا قام بمهاجمة جنوب إيطالية كتعويض عن شمال أفريقية[٨٧].

يبدو أن العلاقة بين رجار وعلي كانت متذبذبة، وبقي الحال بينهما قلقاً حتى وفاة الأمير علي ويتضح من خلال استقراء الأحداث إن علياً لو أمتد به العمر لقاد حملة كبيرة على صقلية ولكن موته قطع ذلك كله ، وتولى ابنه الحسن بن علي مقاليد الأمور في المهدية (٥١٥-٥٤٣هـ/١١٢١-١١٤٨م) وحدثت في عهده عام (٥١٦هـ/١١٢٢م) غزوة بحرية مرابطية باتجاه صقلية[٨٨]، والتي تعد رداً على تدخل رجار الثاني في شؤون العرب الداخلية من جهة وتهديدات بشن حرب بحرية من جهة أخرى، ومع هذا فقد صارت هذه الحملة سبباً مهما في تجهيز رجار لحملة رد كبيرة ضد الحسن بن علي لأنه المحرك لغزوة صقلية، ولهذا استعد الحسن ((واستقدم العرب [من بني هلال] فجاءت الحشود من كل جهة

ومكان))[٨٩]، وأعد عدته وتأهب للقاء الأسطول النورماني ومن جاء معه وجمع مائة ألف راجلاً وعشرة الإلف فارساً[٩٠]، ورغم المبالغة في العدد ولكنه يعطي موشراً على استعداد الحسن الكبير لصد أي هجوم محتمل.

أعد رجار الثاني عدته لغزو الساحل الإفريقي عام ٥٤٣هـ/١١٤٨م كمشاركة منه في الحملات الصليبية ولكن من موقع آخر، ولهذا طلب المساعدة من بعض الإمارات المسيحية ومنهم ملك قشتاله[٩١] فأجابه ومده بأسطوله المتكون من ثلاثمائة مركب على متنه ثلاثون إلف مقاتل وزهاء إلف فارس يقودهم جورج الإنطاكي[٩٢].

حاول رجار إحاطة أسطوله المتوجه إلى المهدية بنوع من الحيطة والحذر لكي يفاجئ خصومه في المهدية، ولكن تأتي الرياح بما لا تشهي السفن إذ هبت عاصفة ألحقت خسائراً فادحةً بأسطوله، إما السفن التي نجت من الغرق فقد اتجهت إلى جزيرة قوصرة[٩٣] واستولت عليها فنهبتها وقتلت الكثير من أهلها[٩٤]، اتجه الأسطول النورماني بعد ذلك إلى جزيرة الاحاسي[٩٥]، ومنها إلى (قصر الديماس[٩٦]) في الساحل واستولوا عليه بعد حصار دام ستة عشر يوماً، وبعدها زحفوا برا بالرجال والخيل إلى المهدية، وعندئذ أجتمع المسلمون[٩٧]، وخرجوا من المدينة كالموج مقاومين المحتلين مقاومة عنيفة انهزم النورمان على أثرها إلى البحر وركبوا سفنهم، ولم يكتفوا بذلك بل تبعوهم إلى جزيرة الاحاسي، فاضطر عسكر النورمان إلى طلب الأمان من الحسن، ولكن العرب الهلالية الذين اشتركوا معه في القتال رفضوا ذلك فخرج النورمان من منتصف جمادي الأخر، فأخذتهم سيوف قبائل بني هلال وقتل عدد كبير منهم، أما الذين فروا من الجزيرة فقد اقلعوا بما تبقى من السفن متوجهين إلى صقلية[٩٨].

وتماشياً على ما تقدم يتضح إن الحسن كان على علم بخطة النورمان الهجومية على المهدية قبل وصولهم إليها، وهذا واضح من الخسارة الفادحة التي ألحقت بأسطولهم رغم ضخامته، فضلاً عن المقاومة الشعبية المتمثلة في القبائل العربية البارزة في القتال، وأذاع الحسن في المدينة نبأ هذا النصر الذي تغنى به الشعراء، ومنهم ابن حمديس الذي صور انتصار العرب في وقعة الديماس بقوله وهو يمدح الحسن بن علي[٩٩]:

فسأل عنهم الديماسْ تسمْع حديثُهم فهم بالمواض في جزيرته جزرُ

وما غنموا إلا مُنَى كذبتْ لهم وكان لهم بالقَصْر عن نيلها قصرُ

أصبح الخطر الذي يهدد البلاد واضحا إذ أن رغبة النورمان في الانتقام وحب السيطرة بقيت في تنامي مستمر، وكان في إمكان الحسن بن علي أن يكون نداً عنيداً لرجار الثاني لولا أنه اصطدم وقتذاك بأطماع ابن عمه يحيى بن المعز[١٠٠]، وفي الوقت نفسه أدرك رجار الثاني بعد هذه الهزيمة إن الوقت لم يحن بعد للاستيلاء على المهدية، فأرجأ ذلك إلى فرصة مواتية، وأخذ يعد العدة للحرب الصقلية – الإسلامية التي تواصلت في السنوات التالية.

توالت الإحداث بعد هزيمة المهدية إذ غزا المرابطون أرض النورمان للمرة الثانية عام ٥٢٢هـ/١١٢٧م وأنزلوا جنوداً إلى البر وظفروا بالغنائم والأسرى، ولمواجهة المرابطين كان على رجار الثاني إن يجد حلفاءً[١٠١] يساعدونه في حربه مع العرب، الأمر الذي شجعه على التفكير في غزو المهدية من جديد، لمحو عار هزيمته في حصن الديماس، ولهذا كلما وصل أسطول مغربي إلى صقلية نّسبه إلى الحسن بن علي[١٠٢].

يبدو إن العبارة المشهورة (لا صديق دائم ولا عدو دائم بل مصلحة دائمة) قد حان وقتها، فقد جاءت الفرصة لرجار عندما طلب الحسن منه المساعدة بعد ساءت أحوال إمارته، في الوقت نفسه لم يتأخر رجار عن مساعدة بني زيري لإخضاع الثائرين عليهم ولكن مقابل صفقة كبيرة نتيجتها صلح بين الطرفين بشروط قاسية يقول التجاني: ((وأنشأ [رجار الثاني] في ظاهر الأمر بينه وبين الحسن صلحاً وفي نفسه ما فيها لتتم خديعته ويتمكن من مراده))[١٠٣]، ولكن شروط ذلك الصلح لم ترض أهل المهدية، إذ وجدوا وفيها مذلة لهم، ولهذا اتصلوا بالأمير يحيى بن المعز صاحب بجاية طالبين منه تخليصهم من الحسن لقبوله هذا الوضع المهين، وبالفعل استجاب يحيى إلى طلب أهل المهدية وأغار على المدينة عام ٥٣٠هـ/١١٣٥م وحاصرها بقواته من البر والبحر، أما رد فعل الحسن بن علي فقد طلب المساعدة من قبائل عرب بني

هلال، كما استعان بالنورمان أعداء الأمس، ويبدو إن الغلبة كانت للحسن الذي صارت بلاده شبه محمية نورمانية[١٠٤]، وفي ذلك يذكر القيرواني: ((وفي أيام الحسن قصد صاحب بجاية أخذ المهدية لأنه سمع بالأمير الحسن انه صالح الملك رجار الثاني صاحب صقلية ووقعت بينهما الهدنة، وكان ذلك إن الحسن أرسل بهدية وصالحه مخافة من شره، فتم الصلح وشرط اللعين [رجار الثاني] شروطاً فقبلها))[١٠٥]، ويبدو من خلال النص إن الحسن بن علي قد تخلى عن واجبه الوطني في مقاومة النورمان العدو الأول لبلاده وتحالف معهم ضد أبناء عمومته في بجاية، وكان الأجدر به إن يتحالف مع ابن عمه يحيى بن المعز صاحب بجاية ضد عدوهم المشترك المتمثل في النورمان، ومنذ ذلك الحين أصبح رجار الثاني يتحكم في أمور الإمارة الزيرية من الناحية السياسية والاقتصادية، لاسيما وأن صقلية تمد أفريقية بما تحتاجه من الحبوب لاسيما القمح، ومنذ ذلك الحين، اعترف الحسن بن علي من تلقاء نفسه بتبعيته لرجار الثاني واثبت ذلك بموجب معاهدة بين الطرفين يتضح إنها لصالح النورمان[١٠٦]، والتي صارت من أهم الأسباب التي جعلت رجار الثاني يتدخل تدخلاً مباشراً في الشؤون الداخلية للمنطقة وكأنها تابعة له.

خامساً: الانتفاضات ضد المحتلين النورمان

هي مرحلة الصدام بقوات الاحتلال النورماني، فحدثت انتفاضات تحريرية، حتى قبل وصول قوات الموحدين إلى أفريقية منها:

أولا: انتفاضة صفاقس :

وجه القائد جورج الإنطاكي أسطولا لغزو مدينة صفاقس عام ٥٤٣هـ/١١٤٨م، ولكن الأسطول واجه مقاومة كبيرة من أهل المدينة وما جاورها من القبائل التي تهيأت للدفاع عن المدينة، الأمر الذي حدا بالنورمان إلى إتباع أسلوب فرض الحصار على المدينة، ورغم ذلك لم يتمكنوا من دخولها، فتظاهروا بالفرار، فخرج أهل صفاقس إليهم، ولكنهم انقلبوا عليهم وحالوا بينهم وبين دخول المدينة فتفرق الناس بين من رجع إلى المدينة ومن فر إلى مناطق أخرى، ودخل النورمان المدينة بعد قتال شديد سقط خلاله عدد كبير من القتلى، وأسر عدد من الرجال والنساء وذلك في ٢٣ صفر عام ٥٤٣هـ/٢٢تموز ١١٤٨م، ثم نودي بعد ذلك بالأمان فعاد أهلها إليها وارجّع إليهم أولادهم ونساءهم، ورفق بهم وذلك بعد وصول خطاب رجار الثاني الذي يأمر به بالأمان لأهل أفريقية[١٠٧]، وفي هذا المعنى يذكر القيرواني: ((أما أهل صفاقس فدافعوا عن أنفسهم بقدر طاعتهم، وأخذها العدو عنوة وأخذ ما فيها، ورد أهلها وأحسن إليهم))[١٠٨]، ودخل النورمان صفاقس بعد إن فقدت المدينة عدد من أبطالها وعلمائها جهاداً في سبيل الله[١٠٩].

تعرضت المدينة إلى الدمار والخراب والنهب والسلب بعدان كانت مدينة عامرة شامخة ذات أسواق مزدهرة وعبر عن ذلك الإدريسي بقوله: ((وافتتحها [صفاقس] رجار الثاني عام ٥٤٣هـ/١١٤٨م وليست مثلما كانت عليه من العمارة والأسواق والمتاجر في الزمان القديم))[١١٠]، وليس هذا فحسب بل حاولوا تغير هوية المدينة بإسكان جماعة من النورمان بقصد الاستيطان فضلاً عن أخذهم رهائن من أهل المدينة ومنهم شيخ البلد أبو الحسن الفرياني[١١١]، الذي أوصى لأبنه عمر إدارة شؤون البلاد، إذ ودعه قائلاً: ((يا بني إني قد كبرت وأشرفت على الموت، وصدقت نفسي على المسلمين، فإن أمكنتك الفرصة في هؤلاء النصارى فانتهزها ودعني اقتل))[١١٢]، ومما تقدم يتضح إن صفاقس كانت غير مستقرة للنورمان، ولهذا حاولوا أخذ رهائن لضمان ولاء المدينة لهم وعدم القيام بأي تحرك ضدهم، ومع هذا فقد قام علي بن الحسن الفرياني بثورة عام ٥٥١هـ/١١٥٦م، والتي مثلت الموقف الشعبي الرافض للاحتلال النورماني والمتمثل بأروع مظاهر الفداء والتضحية من والده أبي الحسن، إذ جاء بوصيته انه تصدق بنفسه على المسلمين، وعلى الرغم من تلويح النورمان بقتل أبي الحسن، فإن الابن تغلب على عاطفة الابوه لهدف أسمى وأعلى وهو الجهاد ضد النورمان وطردهم وتحرير صفاقس.

في أوائل تلك العام أمر عمر الفرياني أهل صفاقس بالثورة فقالوا له إننا نخاف على سيدنا الشيخ والدك[١١٣]، ولكن عمر برر موقفه المنطوي على خطر حياة أبيه لأنه أوصاه بالثورة، وإن قتل والده هين إذا ثار له أهل صفاقس ضد

النورمان، فرتب الثوار وقسمهم على قسمين قسم يتجه للاستيلاء على الأسوار وقسم آخر يتجه لمهاجمه مساكن النورمان، ونفذت تلك الخطة بكل حماس وصدق وكانت النتيجة قتل عدد كبير من النورمان وسيطر الثوار على المدينة[١١٤]، وبهذا حقق أهل صفاقس ما كانوا يتمنون بتحرير مدينتهم من النورمان.

صار لحركة عمر الفرياني صدى وتأثير في مناطق أخرى، فثارت كل من طرابلس وقابس وزويلة ... الخ[١١٥]، ولما وصل الخبر إلى (وليام الأول[١١٦]) صاحب صقلية غضب غضباً شديداً من الثورة من ناحية ومن تأثيرها على المناطق المجاورة من ناحية أخرى ولهذا أراد القضاء عليها، فأمر بحضور أبي الحسن وعرفه ما عمل ابنه، وأمره إن يكتب له كتاباً ينهاه عما عمله ويأمره بالعودة عما قام به ويخوفه عاقبة فعله، فأجابه أبو الحسن: ((من قدم على هذا لا يرجع بكتاب)) وهو دليل واضح على موافقة الوالد لولده لأنه اتفاق سابق إذ فدى بنفسه أهل بلده، وأن الثورة التي بدأت لابد لها إن تستمر وتتوج بالنصر لأهل صفاقس والشهادة له، ولهذا أمر بتقيده وسجنه، ولما يأس وليام الأول من أبي الحسن اتخذ طريقاً آخر اعتقد انه سينفع وهو طريق التهديد والوعيد إذ بعث ذلك مع رسول إلى عمر يأمره بترك ما ارتكبه[١١٧]، وبالرغم من إن السفينة التي كانت تحمل رسول وليام الأول لم تستطيع إن تقترب من الساحل بسبب هياج البحر، لكن الإخبار تسربت بوصول ذلك الرسول إلى عمر ليبلغه قرار قتل والده إذا لم يعد إلى الطاعة، ولهذا استعد عمر لجواب الرسول معنوياً أذ ((خرج الناس يكبرون ويهللون ومعهم نعش قد رفعوه على رؤوسهم فحطوه فتقدم عمر فصلى عليه ودفنه وعزاه الناس وانفصلوا))[١١٨].

كان حامل الإنذار الصقلي ينظر مندهشا لهذا الموكب الذي شاهده، فأراد إن يعرف حقيقة الخبر، فبعث من يأتيه بصحة ما رأى، وجاء الجواب يقول له: إن الشيخ عمر مشغول اليوم بعزاء والده الذي بقي للمدة من (٥٤٣-٥٥١هـ/١١٤٨-١١٥٦م) رهينة بصقلية، وأن النعش الذي شاهده إنما هو نعش أبي الحسن الفرياني لان عمر عزم على موت والده، ولهذا فإن رسالتك تعد منتهية، وأن جواب إنذارك هو ما رأيت من موقف الشيخ عمر في شأن والده، وعاد الرسول يحمل الجواب إلى سيده ولم يكن الجواب رسالة أو نتيجة محادثة، بل وصف ما شاهده، ولهذا اشتد غضب وليام الأول، وعزم هو الآخر على تنفيذ الإنذار فأمر بسحب الشيخ أبي الحسن الفرياني إلى المشنقة بوادي عباس قرب مدينة بلرم حيث نفذ فيه حكم الإعدام شنقاً وهو يتلو كتاب الله إلى آخر رمق في حياته[١١٩]، وهكذا تنتهي هذه النادرة العجيبة في البطولة والتضحية والفداء، والتي لم تقتصر نتيجتها على تحرير مدينة صفاقس بل شملت اغلب المدن الساحلية التي حذت حذوها في التحرير من الاحتلال النورماني.

أصبح لحركة عمر الفرياني صدى وتأثير واضح في المناطق الأخرى، وكانت (زويلة[١٢٠]) أولى المدن استجابة وتأثيرا لحركة عمر الفرياني فقاموا بالثورة وشاركهم بنو هلال وبنو سليم، وكان رد فعل وليام الأول تجاه الثورة سريعاً إذ أرسل عشرين مركباً مزودة بالطعام والسلاح لضرب الحصار على زويلة من جهة، كما استخدموا طريقة خلق التفرقة بين سكان المدينة وبني هلال وبني سليم من جهة أخرى، واستطاعوا إن ينجحوا بذلك إذ انسحب بنو هلال تاركين سكان المدينة لمواجهة قدرهم مع النورمان الذين قتلوا منهم الكثير واستباحوا وقتلوا النساء والأطفال وبهذا أصبحت زويلة ملاذاً للنورمان في أفريقية[١٢١]، ولكن ذلك لم يدم طويلاً اذ استطاع الموحدون استرجاع المدينة من يد النورمان بحدود عام ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م[١٢٢].

ثانياً: انتفاضة المهدية:

أما الانتفاضة الثانية فقد كانت في مدينة المهدية عندما اغتنم رجار الثاني فرصة اشتداد المجاعة بأفريقية عام ٥٤٣هـ/١١٤٨م وما نجم من هجرة بعض سكانها إلى صقلية وغيرها[١٢٣]، فأخذ في تلك الظروف القاسية يعمل لتنفيذ مشروعه التوسعي في أفريقية والتي من خلالها يسيطر على الملاحة في شرقي البحر المتوسط وغربه[١٢٤].

جاءت أهمية المهدية بالنسبة للمشروع النورماني بعد احتلالهم مدينة طرابلس عام ٥٤١هـ/١١٤٦م[١٢٥]، إذ تحولت الغارات النورمانية إلى أفريقية من غارات قرصنه إلى غارات منظمة استمرت لسنوات أسفرت بالسيطرة على الساحل ولم يبق سوى حاكم مدينة المهدية الحسن بن علي[١٢٦] بعيداً عن الحكم النورماني، ومع هذا فإنه ارتبط بمعاهدة عدم اعتداء مع رجار الثاني، واستمر الوضع كما هو حتى عام ٥٤٢هـ/١١٤٧م حين عرض صاحب مدينة قابس رشيد بن كامل مدينته إلى رجار شريطة إن يكون واليها[١٢٧]، فقبل رجار ذلك العرض في حين عارضه بشدة الحسن بن علي[١٢٨]، ومع هذا استمر محمد بن رشيد صاحب قابس سياسة أبيه نفسها الذي توفي عام ٥٤٢هـ/١١٤٧م ويبدو انه كان ضعيفا لأنه سلم تصريف أمور الإمارة لمولاه يوسف، الذي استبد بالأمر وتطاول على الناس، مما أدى إلى هروب معمر الابن الأكبر لرشيد إلى أخواله بني قرة، كما اعتدى على حرمة سيدة من قرة وامتنع من تسليمها، ولهذا اتجه بنو قرة ومعمر بن رشيد إلى الحسن صاحب المهدية واستنجدوا به، فخاطب الحسن يوسف في تسليم المرأة فامتنع، بل هدد بتسلم قابس إلى رجار ولهذا جهز الحسن حملة عسكرية لمواجهة يوسف، الذي أرسل بدوره إلى رجار يطلب منه خلعة وعهداً لولاية قابس مقابل إن يكون نائباً عنه، ولكن رسول يوسف تم القبض عليه وطيف به في المهدية[١٢٩].

قام الحسن بن علي بتجهيز حملة عسكرية هاجم بها قابس التي ثارت ضد المغتصب لخضوعه للنورمان[١٣٠] عام ٥٤٣هـ/١١٤٨م وأسر يوسف وعذب ومثل به حتى مات تحت التعذيب، وولى معمر قابس مكان أخيه وأخذ بني قرة امرأتهم[١٣١]، على العموم يسكت المؤرخون الثلاثة، ابن الأثير والتجاني وابن خلدون عن مصير محمد بن رشيد، والأرجح عندنا انه مات في هذه الإحداث أو خلع من الإمارة بسبب ضعفه أو صغره، وظهر معمر في الدفاع عن كيان البلاد ضد رجار وصنيعته يوسف، واستهجن القيرواني هذا المسلك الذي سلكه يوسف فقال: ((قلت أعوذ بالله من الخذلان، وإلا كيف تعد هذه الطائفة من حزب المسلمين، وإنما هي من حزب الشيطان، لكن حب الشئ يُعْمي ويُصم))[١٣٢].

بعد هزيمة يوسف عام ٥٤٣هـ/١١٤٨م وتولي معمر أمر قابس هرب ولده وأخوه عيسى واتجها إلى رجار الثاني مدعين أن ما حدث ليوسف بسبب ولائه له ودخوله في طاعته، ولهذا غضب رجار لاعتداء الحسن على يوسف كون الاثنين يخضعان له فأستغل الموقف لصالحه وخرق صلحه مع الأمير الحسن[١٣٣].

جاءت حملة عام ٥٤٣هـ/١١٤٨م نتيجة توتر العلاقات بين الطرفين بقيادة جورج الإنطاكي لمهاجمة المهدية بأسطوله الذي يقدر بـ(٢٥٠) سفينة، ويبدو إن الحسن كان يدرك إن استحالة المقاومة لمدة طويلة الأمد، لأن البلاد كانت تعاني من مجاعة ولم يكن بوسع المهدية إن تصمد أكثر من شهر[١٣٤]، ومع هذا كان الحسن بن علي يرسل المراكب إلى (جزيرة قوصرة[١٣٥]) المتوسطة الموقع بين المهدية وجزيرة صقلية والتي كانت مزودة بالحمام الزاجل، لموافاته بأخبار تحركات الأسطول النورماني في اتجاه الساحل الإفريقي على وجه السرعة كي يتأهب لملاقاته، ورغم حالة الحذر واليقظة فقد تزامن وصول الأسطول النورماني مع وجود مركب مراقبة تابع للحسن بن علي، وكان على ظهر المركب قفص حمام زاجل يستخدم لنقل الرسائل بسرعة، فسأل قائد الأسطول صاحب الحمام هل أرسل شيئاً إلى الحسن فأجابه بأنه لم يرسل شيئاً فأمره إن يكتب بخطه: ((إننا لما وصلنا جزيرة قوصرة وجدنا بها مراكب من صقلية، فسألناهم عن الأسطول المخذول، فذكروا انه اقلع إلى جزائر قسنطينة، وأطلق الحمام إلى المدينة فسر الأمير الحسن والناس، وأراد جرجي(جورج) بذلك إن يصل بغتة))[١٣٦].

رغم أن تلك الخطة كانت للتمويه على الحسن بن علي فقدّر الله تعالى ((أن أرسل عليم ريحاً هائلة عكستهم، فلم يقدروا على السير إلا بالمقاذيف [المجاديف] فطلع النهار ثاني صفر في هذه العام قبل وصولهم، فرآهم الناس، فلما رأى جرجي (جورج) ذلك وأن الخديعة فاتته، أرسل إلى الأمير الحسن يقول: إنما جئت بهذا الأسطول طالبا بثار محمد بن رشيد صاحب قابس ورده إليها، وأما أنت فبيننا وبينك عهود وميثاق إلى مدة، ونريد منك عسكراً يكون معنا))[١٣٧].

اضطربت أحوال الحسن فجمع كبار الأعيان والعلماء في طرابلس لاستشارتهم في الأمر، فنصحه بعضهم بالدفاع عن المدينة، ولكن الحسن كان يشعر بان نجمه أخذ ينتهي، وأنه من العبث أن يلجأ إلى القوة، لان عساكره كانت قليلة العدد والمؤن لا تكفيها أكثر من شهر، لهذا لم يأخذ برأي هؤلاء الذين أشاروا عليه بالدفاع وأعتبرها مجازفة لا فائدة منها في رأيه، في الوقت نفسه لم يقبل باقتراح جورج الإنطاكي الذي يقضي بالانضمام إليه لمحاربة إخوانه المسلمين، وأبدى رأيه هذا لكبار الفقهاء والأعيان قائلاً: ((وأنا أرى سلامة المسلمين من الأسر والقتل خيراً من الملك، وطلب مني عسكراً إلى قابس فإن فعلت فما يحل لي معونة الكفار، وأن امتنعت يقول [رجار] انتقض ما بيننا من الصلح، وليس يريد إلا أن يثبطنا حتى يحول بيننا وبين البر، وليس لنا بقتاله طاقة، والرأي أن نخرج بالأهل والولد وننزل البلد، فمن أراد إن يفعل كفعلنا فليبادر معنا))[١٣٨]، وهكذا لم يجد الحسن اختياراً سوى الهرب للأسباب التي مر ذكرها، ولكن كان من الأجدر به الدفاع عن مدينته حتى النهاية، وبذلك يكون الاستشهاد في سبيل الله والوطن خيراً من الهرب والاستسلام للنورمان الذين دخلوا المدينة دون مقاومة ودخل جورج الإنطاكي مقر الحسن فوجدوه كما هو بكل ما فيه من ذخائر، ووجد الخزائن مملوءة بالذخائر النفسية، وتعرضت المدينة للنهب مدة ساعتين نودي بعدها بالأمان للناس، وخرج من كان متخفيا ورجع من كان خارج المدينة[١٣٩]، ومع هذا فقد هرب جماعة من أهل المدينة إلى (عبد المؤمن بن علي[١٤٠]) بمراكش[١٤١] يستنجدون به ضد النورمان، واخبروه بما جرى للمسلمين على أيدي النورمان في مدينتهم، فاستجاب إلى طلبهم لاسيما بعد إن عرف ضعف المدينة في مواجهه هذا الطاغوت الكبير وقال لهم ((ابشروا لأ نصرنكم ولو بعد حين، وأمر بإنزالهم وأطلق لهم ألفَي دينار، ثم أمر بعمل الروايا (الحبال) والقِرب وما يحتاج اليه العساكر في السفر))[١٤٢]، وأعد حملة عسكرية كبرى ضمت مائة إلف مقاتل وتوجه بها إلى المهدية عن طريق البر[١٤٣]، بينما كان الأسطول المتكون من سبعين قطعة بحرية يتجه نحو المهدية أيضا[١٤٤]، وفي الوقت نفسه أمر عبد المؤمن بحفر الآبار ووضع أكوام من الحبوب لتموين الجيش على طول الطريق، كما كتب لعماله يأمرهم بحفظ الغلاّت ((وأن يُترك في سنبله ويخزن في مواضعه، وأن يحفروا الآبار في الطرق، ففعلوا جميع ما أمرهم به، وجمعوا الغلاّت ثلاث سنين، ونقلوها إلى المنازل، وطّينوا عليها، فصارت كأنها تلال))[١٤٥].

يتضح مما تقدم مدى تأثير خطة التدبير التي اتخذها عبد المؤمن من أجل تأمين وصول الجيوش الكبيرة، التي وصلت إلى مدينة تونس في شهر جمادي الأول عام٥٥٤هـ/١١٥٩م ومكث بها ثلاثة أيام[١٤٦]، ثم اتجه إلى حصار المهدية في ١٢ رجب عام ٥٥٤هـ/٣٠ تموز ١١٥٩م وكان بصحبته الحسن بن علي ودام حصار الموحدين لها سبعة أشهر[١٤٧]، إذ تفقد عبد المؤمن أمور المدينة عن طريق البحر وتأكد له إن فتحها لا يمكن إلا بالحصار الطويل الأمد، ولهذا قام باجراءت سريعة منها بناء جدار بينه وبين أسواق المدينة ليمنع الفرسان النورمان من مهاجمة جيشه والانسحاب دون خسائر، كما أمر بالأسطول الموحدي بإطباق الحصار على المهدية، ثم أمر أن تجمع المؤن، وبالمقابل قام النورمان بإخراج المسلمين من المدينة لكي لا يكون عبئاً عليهم بالطعام[١٤٨].

يتضح أن عبد المؤمن أراد محاصرة المدينة وقطع الإمدادات العسكرية عنها، حتى تنفذ المؤن من الحامية العسكرية وتضطر إلى الاستسلام دون الدخول معها في معركة، واستمر النورمان محتمين داخل سورها سبعة أشهر حتى نفذت مؤنهم، يقول المراكشي: ((فبهذا قدر الروم على الصبر على الحصار سبعة أشهر إلا أياماً، وإصابتهم عليها شدة شديدة من غلاء السعر بلغني عن غير واحد أنهم اشتروا الباقلاء في المعسكر، سبع باقلات بدرهم مؤمني [نسبة إلى عبد المؤمن] وهو نصف النصاب))[١٤٩].

حاول وليام الأول فك حصار المهدية وحفظ ماء الوجه فاستدعى أسطوله الذي كان يهاجم سواحل الأندلس، وأرسله إلى المهدية بقيادة قائده المميز بطرس[١٥٠]، وكان هذا الأسطول ضعف الأسطول الإسلامي، ومع هذا فقد كانت الرياح

لصالح المسلمين ولهذا كتب قائد الأسطول الإسلامي إلى عبد المؤمن يطلب منه الهجوم لان الرياح ستضطر النورمان إلى إن يتقدموا في غير نظام، وبالفعل تم اسر سبع أو ثمانية من السفن المهاجمة ولاذت الباقي بالفرار(١٥١).

يأس النورمان من وصول النجدات إليهم من صقلية، ولهذا طلب وفد منهم يتكون عدد من الفرسان من عبد المؤمن مراكب تنقلهم إلى صقلية، فأجابهم على ذلك، غير إن الوقت كان شتاء فغرقت اغلب السفن(١٥٢)، ويضيف ابن الأثير: ((وكان صاحب صقلية قد قال: إن قتل عبد المؤمن أصحابنا بالمهدية قتلنا المسلمين الذين هم بجزيرة صقلية وأخذنا حرمهم وأموالهم))(١٥٣)، ولهذا نجد عبد المؤمن يطلق سراح الحامية البالغة ثلاث ألاف دون أذى.

هكذا تم النصر لعبد المؤمن بن علي الذي خرَ ساجداً حمداً لله ،على نصره وبهذه المناسبة وزع على الأسطول عشرة ألاف دينار مؤمني، ودخل المهدية منتصراً يوم عاشوراء من المحرم وسماها عبد المؤمن (سنة الأخماس) لكثرة الغنائم والأخماس منها أو لأنها عام ٥٥٥هـ/١١٦٠م، وأقام عبد المؤمن بالمهدية عشرين يوماً ((فرتب أحوالها، وأصلح ما انثلم من سورها، ونقل إليها الذخائر من الأقوات والرجال والعدد، واستعمل عليها بعض أصحابه(١٥٤)، وجعل معه الحسن بن علي الذي كان صاحبها، وأمره أن يقتدي برأيه في أفعاله، وأقطع الحسن بها إقطاعا، وأعطاه دُوراً نفيسةً [واسعة أو فخمة] يسكنها، وكذلك فعل بأولاده))(١٥٥).

ثالثاً: انتفاضة مدينة سوسة:

هَبَّ أهل سوسة للدفاع عن المهدية عندما سمعوا بسقوطها على يد النورمان، بقيادة علي بن الحسن الذي توجه لملاقاة أبيه خارج المدينة، في حين استغل النورمان ذلك الموقف ودخلوا (سوسة(١٥٦)) في ١٢ صفر عام٥٤٣هـ/١١ يوليو ١١٤٨م(١٥٧).

يبدو إن لقدوم عبد المؤمن بن علي إلى المهدية أثراً كبيراً في شحذ الهمم للتخلص من النورمان فضلاً عن انهزام الأسطول النورماني ولهذا عين عبد المؤمن احد إتباعه حافظاً لها(١٥٨)، غير إن النورمان أغاروا على المدينة غفلة ونهبوها وخربوها وسبوا النساء والأطفال وأخذوا صاحبها من ضمن الأسرى ثم افتدوهم فيما بعد(١٥٩)، وكانت غارة النورمان سريعة غرضها النهب والسلب.

رابعاً: انتفاضة جزيرة جربة:

كانت جزيرة جربة تتمع بشئ من الاستقلال الذاتي(١٦٠) منذ منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، أذ كانت تجاهد ضد النورمان الذين انتزعوا صقلية من المسلمين، وذلك بالتصدي لمراكبهم في البحر المتوسط من جهة ورداً على ممارساتهم المتجهة نحو الحصول على موطن قدم في أفريقية من جهة أخرى، ومع هذا نجد صاحب المهدية(١٦١) يقدم على مهاجمتها وإخضاعها لسلطانه عام ٥١٠هـ/١١١٦م متذرعاً بما ((ترادف عليه من قطع أهلها في البحر وإخافتهم المسافرين فيه))(١٦٢).

غزا أسطول النورمان جزيرة جربة في خريف عام ٥٢٩هـ/١١٣٥م واستخدم رجال الأسطول العنف والنهب والقتل مع أهالي الجزيرة بعد إن أبدى أهلها مقاومة عنيفة، وعن ذلك يقول ابن الأثير: ((فخرج إليها [إلى جربة] جمع من الفرنج [النورمان] ... في أسطول كثير وجم غفير، فيه من مشهوري فرسان الفرنج جماعة ... فوقع بين الفريقين حرب شديدة، فثبت أهل جربة، فقتل منهم بشر كثير، فانهزموا وملك الفرنج الجزيرة وغنموا أموالها وسبوا نساءها وأطفالها، وهلك أكثر رجالها))(١٦٣).

لم يستسلم أهل جربة للنورمان وكانت مقاومتهم عنيفة وتوجت تلك المقاومة بانتفاضة عام ٥٤٨هـ/١١٥٣م والتي استطاعوا من خلالها تحرير جزيرتهم وإخراج المحتلين منها وقتل من بقي منهم، ولهذا جهز النورمان أسطولاً كبيراً في العام نفسها تمكن من احتلال الجزيرة مرة ثانية قامعاً انتفاضتهم دون رحمة بعد مذابح رهيبة، ومن نجا من سكانها من ذلك

القتل والسبي، نقّل إلى صقلية فبيعوا في الأسواق عبيداً ((ولم يبقى في الجزيرة إلا من لا بال له))(١٦٤)، ويضيف القيرواني أن ((رجار الثاني ولى عليهم عاملاً من قبله وكتب لهم أمانا من عنده وجعلهم خولاً لهم))(١٦٥)، وما قيمة الأمان بعد إن تعرضت الجزيرة وأهلها إلى أشد أنواع القتل والتعذيب والنهب والتشريد، ومع هذا لم يتحرك الحسن بن علي بالرغم من إن الجزيرة كانت من ممتلكاته، ويعلل هذا إما لضعفه إمام النورمان أو خيانته وتورطه معهم.

إن غزو النورمان لجزيرة جربة لم يكن بقصد وضع حد لأعمال القرصنة، بل لأنه صاحب صقلية كان يطمع في أفريقية بعد إن انتزع صقلية من المسلمين، وأراد أن يتخذ من جربة قاعدة له في خليج قابس لتحقيق غرضه، وأدى أخذ النورمان لجربة إلى عرقلة التجارة البحرية في مصر وأفريقية(١٦٦)، فضلاً عن استيراد التوابل والعطور من مصر، لأن أفريقية كانت تستورد الكتان لصناعة الأقمشة والسويسيات الشهيرة وتصدرها إلى المشرق(١٦٧)، ومنذ منتصف القرن الحادي عشر كان نقل البضائع بين أفريقية ومصر يتم في معظمه بحراً بعد أن كان يتم براً عن طريق القوافل قبل الغزوة الهلالية(١٦٨).

يبدو أن صاحب صقلية بعث إثر استيلائه على جزيرة جربة عام٥٢٩هـ/١١٣٥م خطاباً إلى الخليفة الفاطمي الحافظ بالله في القاهرة يبررَ فيه أخذه لجربة متهماً أهلها بالاعتداء على مراكبه، وبانتهاك الاتفاقيات المبرمة بينه وبين صاحب المهدية، وأورد القلقشندي ضمن نماذج المراسلات السلطانية نص الخطاب الذي رد فيه الحافظ بالله على صاحب صقلية وفيه يتناول ضمن المسائل المثارة قضية جربة فيقول: ((فإما ما ذكرته من افتتاحك الجزيرة المعروفة بجربة لما شرحته من عدوان أهلها وعدولهم عن طرق الخيرات وسلبها، واجترائهم في الطغيان على أسباب لايجوز التغافل على مثلها، واستعمالهم الظلم تمرداً في الغي تباهياً في الباطل وغلوا، يأساً من الجزاء لمّا استبطاؤه، فإن كانت هذه حالته حقيق أن تكون الرحمة عنه نائبه، وخليق أن يأخذ الله من أمنه أخذة رابية))(١٦٩)، أن رد الحافظ غريب حقاً، وللمرء أن يتساءل عما كان صادقاً فيما ذكره، ويشك (كنار) أن يكون الحافظ يعني ما قاله بشأن استيلاء رجار الثاني على جربة، لاسيما وأن علاقة الحسن وولده قد تعززت مع العبيديين، ولعل ما ذكره راجع إلى رغبة الحافظ بحكم ضعفه وانشغاله بالحروب الصليبية في المشرق في إقامة علاقات طيبة مع صاحب صقلية، ففي عام ٥٣٨هـ/١١٤٣م أبرم رجار الثاني مع مصر معاهدة تجارية ومع ذلك فإن أسطول رجار ما انفكَّ يعترض سبل المراكب المصرية بعد استيلائه على جربة(١٧٠)، إن صاحب صقلية هو الآخر لم يكن صادقا في ما ذكره لأخذه جزيرة جربة، كما تقدم، إنما استهدف من احتلال الجزيرة بسط نفوذه على أفريقية، وهو ما حدث بالفعل خلال الثلاث عشرة عام التالية لاحتلال الجزيرة.

واجهت صقلية بعد موت رجار الثاني عام ٥٤٨هـ/١١٥٤م مشاكل في الداخل والخارج، وحدثت اضطرابات في أفريقية، أدت إلى قيام ثورات ضدهم في مناطق أخرى ومنها جربة عام ٥٥١هـ/١١٥٦م تكللت بالنجاح قبيل وصول الموحدين وإخراجهم للنورمان من المهدية سنه ٥٥٥هـ/١١٦٠م منهين بذلك مغامرة النورمان ووجودهم في أفريقية(١٧١).

خامساً: انتفاضة طرابلس الغرب(١٧٢):

تتمتع طرابلس بموقع مميز بين مشرق الوطن العربي ومغربه، حين كانت تمر بها الجيوش العربية ذهاباً وإياباً، كما تمر بها القوافل التي تحمل السلع والحجاج ورجال العلم والأدب، وأثر ذلك كله على المدينة من الناحية السياسية والاقتصادية والفكرية والدينية، كما منحها موقعها المتميز تحول الأنظار إليها والاهتمام بها ومنهم أصحاب المهدية من بني زيري الذين اهتموا بها لقربها من إمارتهم من جهة ولموقعها الحيوي الهام من جهة أخرى(١٧٣)، فضلاً عن اتخاذهم بديلاً عما فقدوه في المغربين الأوسط والأقصى وذلك لخوفهم من سيطرة قوة معادية على المدينة(١٧٤) ، وكان في عام المسلمين منذ بداية حروب التحرير الإسلامية أقامة (الرباط(١٧٥)) محاذاة سواحل الشمال الإفريقي، يعبدون فيها الله ويقيمون شعائر الدين ثم يحملون السيف لحراسة الوطن من العدو المتربص به من وراء البحر، وأصبحت الربط (الرباط) مراكزاً لقوافل التجارة ودورا للعلم .ويذكر المراكشي ((ما بين الإسكندرية وطرابلس الغرب حصون متقاربة جداً فإذا ظهر في

البحر عدو نوَر كل حصن للحصن الذي يليه))[١٧٦]، وبفضل هذا الممارسة ازدهرت الحياة التجارية والزراعية، وظهرت بعض المدن الكبيرة ومنها طرابلس التي أصبحت مطمعاً للنورمان، الذين بعثوا العيون للتعرف عن إخبارها بالتفصيل[١٧٧] ، فضلاً عن قائد أسطوله جورج الإنطاكي الذي كان على معرفة بالبلاد وجغرافيتها، ولهذا قرر رجار الثاني غزو طرابلس لاسيما بعد أن وصله خبر استقلال أبي يحيى رافع بن مطروح[١٧٨]عن الأمير الحسن بن علي في المهدية[١٧٩]، وأبحر الأسطول النورماني في التاسع من ذي الحجة عام٥٣٧هـ/١١٤٣م، وعن ذلك حدثنا ابن الأثير: ((فنازلوا البلد وقاتلوه، وعلقوا الكلاليب في سوره ونقبوه، فلما كان الغد وصل جماعة من العرب [عرب بني هلال] نجده لأهل البلد، فقوي أهل طرابلس بهم، فخرجوا إلى الأسطولية فحملوا عليه حملة منكرة، فانهزموا هزيمة فاحشة وقتل منهم خلق كثير، ولحق الباقون بالأسطول، وتركوا الأسلحة والإثقال والدواب والآلات فنهبها العرب وأهل البلد، ورجع الفرنج إلى صقلية))[١٨٠].

وهكذا فشلت الحملة النورمانية في الدخول إلى طرابلس وذلك لحصانتها من جهة واستعداد بني مطروح[١٨١] للدفاع عن أنفسهم فضلاً عن دور القبائل العربية من بني هلال وسليم من جهة أخرى، ولهذا دحَر الغزاة ورجع الأسطول النورماني وهو يجر أذيال الخيبة والهزيمة، ويبدو أن رد فعل رجار الثاني كان قوياً لأنه أراد من محو العار الذي الحق به ولذلك قام بالعودة إلى طرابلس عام٥٣٩هـ/١١٤٤م ولكن بقوة صغيرة غرضها التمويه[١٨٢]، وبصورة مفاجئة وخاطفة في عملية لجس نبض من ناحية وللتأكيد على أن رجار لا يزال موجود وباستطاعته الوصول إلى طرابلس من ناحية أخرى وذكر ابن الأثير في هذا المعنى ((كان صاحب صقلية قد أرسل سرية قي البحر إلى طرابلس الغربي وتلك الإعمال فنهبوا وقتلوا ... وغنموا))[١٨٣].

اجتاحت مدينة طرابلس عام ٥٤٠هـ/١١٤٥م مجاعة مهلكة قضت على الكثير من أهلها وحملت كثيراً منهم على النزوح عن المدينة[١٨٤]، كما ثار أهل المدينة قبيل وصول النورمان بمدة ضد بني مطروح وأخرجوهم من البلاد، وولوا عليهم رجلاً من المرابطين (الملثمين)[١٨٥]، ويستغرب من تولية رجل غريب أمر طرابلس، في الوقت نفسه نستبعد إن يكون الخلاف بين أهالي المدينة حداً في تولية رجل عابر سبيل يسعى لأداء فريضة الحج، ولا يذكر ابن الأثير تفاصيل عن اسم الشخص أو عمله ويكتفي بأنه كان من ضمن رهائن المدينة الذين حملوهم النورمان إلى صقلية، واستغل رجار الثاني هذه الظروف في تنفيذ خطته للاستيلاء على طرابلس فأمر أسطوله بالتوجه إلى المدينة بقيادة جورج الإنطاكي في ٣ محرم عام ٥٤١هـ/١١٤٦م فأحاطوا المدينة من جهة البر والبحر، ولكن أهل طرابلس هبوا للدفاع عن مدينة ومقاومة المحتلين فاعتلوا الأسوار لمدة ثلاثة أيام متتالية ولكن الأمر عندما اجتمعت جماعة من مؤيدي مطروح وأعادوا تنظيمهم ودخلوا المدينة، ولهذا تصدى لهم أهلها ووقعت بينهم معركة جعلت أهل الأسوار بدون حماية تذكر، ولهذا بادر النورمان إلى وضع السلالم على الأسوار واستطاعوا من دخول المدينة عنوة، ونال أهل طرابلس القتل والنهب والسلب، ولجأ كثير منهم إلى المناطق المجاورة، ثم نادوا بعد ذلك بالأمان فرجع الأهالي إلى منازلهم[١٨٦]، ((وأقام الإفرنج ستة أشهر حتى حصّنوا أسورها وحفروا خندقها، ولما عادوا [إلى صقلية] أخذوا رهائن أهلها، ومعهم بنو مطروح والملثّم، ثم أعادوا رهائنهم، وولوا عليها رجلاً من بني مطروح، وتركوا رهائنه وحده، واستقامت أمور المدينة، وألزم أهل صقلية والروم بالسفر إليها، فانعمرت سريعاً))[١٨٧]، ومما تقدم يبدو أن المدينة كانت محصنة بشكل جيد لدرجة إن العدو لم يستطيع من دخول المدينة إلا بعد انشغال أهلها بخلافات انتشرت فيما بينهما مما أدى إلى تعثر واضح في الدفاع عنها فسّهل دخول النورمان، والذي يثبت حصانة المدينة هو فشل النورمان في دخول المدينة في عام ٥٣٧هـ/١١٤٣م وكذلك عام ٥٣٩هـ/١١٤٤م، وهكذا وقعت طرابلس بيد النورمان نتيجة الخلافات والصراعات على السلطة ولو كان ذلك على حساب الوطن والدين، كما يتضح أن المدينة قد تعرضت إلى الخراب والدمار الشامل بدليل إن النورمان استغرقوا ستة أشهر في أصلاح أسوارها وخنادقها، ويبدو كذلك إن وضع طرابلس لم يكن مستقراً ولهذا أقدم النورمان على أخذ رهائن من أهلها، ولم يتم إرجاعهم إلا بعد استقرار المدينة.

حاول النورمان تغيير هوية المدينة وذلك بتشجيع الهجرة إليها، فهاجر إلى طرابلس عدد من المستثمرين لغرض الاستيطان، كما منح رجار الثاني مساكن وأراضي زراعية وقروضاً مالية، وذلك تشجيعاً منه للصقليين على الهجرة والاستيطان في طرابلس وهي نزعة استيطانية استعمارية مبكرة، وربما هي بداية الطريق لدى رجار لتأسيس إمبراطورية نورمانية تشمل صقلية وشمال أفريقية.

رتب جورج الإنطاكي أمور البلاد الإدارية فأصلح سورها وحفر خندقها وحدد نسبة من المال تقوم المدينة بدفعها كجرية لحكومة صقلية فضلاً عن وجود حامية نورمانية، ثم عين أبا يحيى رافع بن مطروح التميمي والياً عليها[١٨٨]، كما وضح أبا الحجاج يوسف بن زيري على قضائها وكان هؤلاء يديرون شؤون المدينة[١٨٩]، ويبدو إن للحامية الموجودة في المدينة الدور الكبير في حفظ حقوق النورمان في المدينة فضلا عن حمايتها للجالية النورمانية التي نقلها رجار الثاني إلى طرابلس، ويظهر إن اختيار والٍ من أهالي المدينة والمتمثل ببني مطروح يعطيه نوعاً من الشرعية، وتسكت الكثير من المصادر عن ذكر حقبة السيطرة النورمانية على طرابلس الغرب وما حولها، ولكن يتضح إن ابن مطروح لم يكن قادراً على تهديد المصالح النورمانية في طرابلس نظرا لوجود حاميتهم فيها فضلاً عن وجود حاميات أخرى في المدن المجاورة هذا من ناحية وأنه لم ينسَ فضلهم في وضعهِ والياً على المدينة من ناحية أخرى، ولم تكن هناك قوة إسلامية قريبة يستعين بها على تخليص المدينة من النورمان وعلى أية حال حاول ابن مطروح الاتجاه إلى الداخل لتحسين أحوال معيشة الناس في المدينة لحين توفر الفرصة المناسبة لتحرير المدينة نهائياً، ولهذا شجعوا النشاط الاقتصادي في المدينة لاسيما التجارة البحرية مستغلاً الظروف العامة التي تمر بها المنطقة حيث كانت تشكو حالة من القحط والغلاء، فازدهرت طرابلس وأصبحت مركزاً تجارياً مهما.

مع تّحسن الحالة الاقتصادية ظهر الشعور في التخلص من النورمان أولاً والجزية ثانياً، أخذوا يفكرون بالمقاومة والثورة ضد النورمان، وصادف ذلك سيطرة الموحدين[١٩٠]على المغربيين الأقصى والأوسط وصاروا يتجهون نحو أفريقية، وأعطى دافعاً معنوياً لأهل طرابلس إلى الثورة على المحتلين متخذين مدفوعين بعوامل متعددة[١٩١] منها:

١- يقظة الشعور القومي والديني بفضل قوة الموحدين في المغرب.
٢- الأمل في الحصول على العون المالي والمعنوي من الموحدين .
٣- مبادرة بني مطروح واعيان المدينة بالثورة على الحامية قبل أن تعمد الحكومة النورمانية إلى إرسال تعزيزات من الجيش والأسطول لفرض سياستها بالقوة.
٤- الاطمئنان إلى قله الحامية النورمانية.
٥- عودة رهائن المدينة إلى طرابلس بعد إن اطمأن النورمان إلى ولاء أهلها.
٦- كرههم الخضوع لحكومة غير مسلمة واستمرارهم دفع الجزية لها .

وهكذا كان للعامل (القومي[١٩٢]) و(الديني[١٩٣]) دورُ واضحُ في ثورة أهل طرابلس ولكن التجاني يذكر لنا أن السبب المباشر للثورة هو إن النورمان لما رأوا بدء تغلب الموحدين على أقطار المغرب طلبوا من أئمة المساجد في طرابلس أن يذموا الموحدين على المنابر ويستثيروا كراهيتهم للناس، فاجتمع الناس إلى قاضيهم أبي الحجاج يوسف وأوضحوا أن هذا الأمر خطير ولا يستطيعون تحمله، فذهب القاضي إلى قائد الحامية وأوصله رسالة أهلها وأنهى حديثه بان موقف أهل البلد في ذم الموحدين أمر يخالف الدين الإسلامي لان الجميع مسلمون وعلى النورمان إما إن يتوقفوا على الذم وإلا سيرحلون هم عن مدينتهم[١٩٤].

يبدو مما تقدم أن أهل طرابلس بدءوا يهددون النورمان بالموحدين، وربما هذا الشئ توضح للنورمان لأنهم استجابوا لما أراد أهل المدينة وتراجعوا عن طلبهم.

مع هذا كانت رغبة أهل طرابلس بالحرب والتخلص من الغزو الأجنبي هدفهم الأكبر، ولم يعّولوا على استجابت طلباتهم، ولهذا استمروا في ترتيب صفوفهم، وتحددت ساعة الصفر وذلك عام ٥٥٣هـ/١١٥٨م وفي أثناء الليل قام أهل طرابلس بوضع الحبال والخشب في الطرقات لعرقلة خيل العدو من الجري، ولما سمعت الحامية بالثورة تحركت لمعالجة الموقف ولكن خيولهم تعثرت بالحبال والخشب فلهذا قبض عليهم الأهالي وقتلوهم، وأحرقت بيوتهم بالنار، وبقي ابن مطروح سيد الموقف بطرابلس، واستطاع استمالة عرب بني هلال وبني سليم المحيطين بالمدينة، فاستطاع أهل طرابلس تحرير مدينتهم وبقي ابن مطروح حتى وصول عبد المؤمن بن علي إلى المهدية[١٩٥].

هكذا أخفقت حكومة صقلية في نجدة حاميتها المتمركزة في أفريقية، كما إن الحاميات لم تبد مقاومة كبيرة، ولعل ذلك يرجع إلى الظروف الداخلية في صقلية، وإلى الإخطار الخارجية التي كانت تهددها في جنوب إيطاليا من جهة الإمبراطورية الألمانية وكذلك البيزنطيون وقوات البابا، فلم يعد بمقدور صقلية توفير القوات الكافية لمواجهة هذه الإخطار معا، وأن تحتفظ في الوقت نفسه في أفريقية بقوات تكفي لإخضاع شعب بأسره ولمواجهة دولة فتية كبرى، هي دولة الموحدين[١٩٦]، والمبدأ القائل بان الحملات يمكنها تحقق فتوحات، ولكنها لا تستطيع الاحتفاظ بها ظل صحيحا[١٩٧]، بدليل إن وليام الأول رأى استحالة مجابهة الموحدين برا وبحرا، ولذلك تناسى فقدانه لممتلكاته في أفريقية، ولعل ذلك راجع إلى نصيحة وزيره (مايو) وسياسته، نظرا للصراع القائم مع الإمبراطورية الألمانية، فصقلية أصبحت مهددة ولهذا لا تستطيع من إرسال حملة إلى الساحل الإفريقي لأنها ستحتاج إلى عدة حملات وفي ذلك مخاطر لا نهاية لها[١٩٨].

يبدو أن النورمان وجدوا ورقة (مسلمي صقلية[١٩٩]) رداً مناسباً لفقدانهم شمال أفريقية، فعندما قامت ثورة عام٥٥٦هـ/١١٦١م في عهد وليام الأول ضد وزيره مايو، وكان نتيجتها قتل عدد كبير من المسلمين[٢٠٠]، بعد إن هجموا عليهم وأثخنوا فيهم قتلا في شوارع بلرم[٢٠١]، ((ثم قتلوا المسلمين الذين كانوا في الدواوين أو في الفنادق أو في الحوانيت، ونزعوا الأكفان من جثث الموتى، ولم يكن عدد من هلك من المسلمين قليلاً ... ولعل الإدريسي كان من بين الضحايا أيضاً))[٢٠٢].

من هذا يتضح أنها حملة صليبية ضد المسلمين في مدينة بلرم، إذ انتزعت منهم أسلحتهم التي يدافعون بها عن أنفسهم، ولو بقيت لديهم لما حدث لهم ما حدث، والروح الصليبية هي التي شجعت هؤلاء النصارى على الإقدام على مثل هذا العمل، وهي وكما نوهنا كرد فعل للهزائم التي حلت بالنورمان على ساحل أفريقية.

تغيرت الأمور فيما بعد إذ تمكن وليام الثاني[٢٠٣] (٥٦٢-٥٨٥هـ/١١٦٦-١١٨٩م) من إبرام معاهدة سلام مع الموحدين، وعززت تلك المعاهدة بتبادل الهدايا إذ أرسل وليام الثاني إلى الأمير الموحدي ياقوتة نفيسة في حجم حذاء الفرس، على حد قول المراكشي: ((وبلغني انه اتصلت إليه [أبو يعقوب] منه [وليام الثاني] ذخائر، ... لم يكن عند ملك مثلها، مما اشتهر حجر ياقوت يسمى الحافز ... على قدر استدارة حافز الفرس ... مع أحجار نفيسة))[٢٠٤].

وهكذا بسط عبد المؤمن بن علي سلطانه على شمال أفريقية، ووحد إدارته وأنهى الاحتلال النورماني في شمال أفريقية، فقد كان قائداً حربياً بارعاً وسياسياً ماهراً، فاستطاع أن يقود الموحدين من نصر إلى نصر، إذ استطاع توحيد المغرب العربي تحت راية واحدة بعد أن كان يسيطر النورمان على جزء منه وكان الباقي مقسماً إلى إمارات صغيرة كانت دائما محط أطماع الطامعين.

سادساً: ضعف مقاومة أهالي جزيرة قرقنة[٢٠٥] ضد الاحتلال:

هاجم النورمان جزيرة قرقنة بعد مهاجمتهم مدينة طرابلس، الأمر الذي اغضب الحسن بن علي من تلك التحركات النورمانية، ولكن رجار الثاني أقنعه بكتاب بعثه له موضحا بان الأسطول النورماني يريد مهاجمة المدن المتمردة على حكم بني زيري، ولهذا اقتنع الحسن بكلام رجار دون أن يحرك ساكنا، ويذكر ابن الأثير انه في عام ٥٤٠هـ/١١٤٥م في المعنى نفسه ((فقتلوا رجالها وسبوا حريمهم، فأرسل الحسن صاحب أفريقية إلى رجار ملك صقلية يذكره بالعهود التي بينهم،

فاعتذر بأنهم غير مطيعين له))[٢٠٦] ويبدو أن الحسن قد طلب من رجار الثاني القيام بحملات تأديبية ضد الخارجين عليه والدليل على ذلك هو اقتناعه بما قال رجار، وبهذه الحالة يعد الحسن متواطئاً مع النورمان ضد أبناء وطنه من أجل الحفاظ على عرشه، ويشير القيرواني: ((انه لما استولى النورمان على جزيرة قرقنة سبوا أهلها وباعوهم في أسواق صقلية كما يباع العبيد، ومن سلم منهم رجع لها ودخل تحت حماية النورمان))[٢٠٧].

يتضح إن الجزيرة كانت مهملة من قبل أمراء بني زيري رغم قربها من المهدية من ناحية وكذلك موقعها الحيوي المهم من ناحية أخرى، ويبدو أن الغفلة والمراوغة التي اتبعها النورمان كانتا سبباً رئيساً في ضعف مقاومة أهل الجزيرة، لاسيما وأن أهلها كما تشير الأحداث كانوا متمردين ضد السلطة الزيرية، اذ كانت من مراكز القلق والتمرد، وربما هذا ما يفسر عدم تدخل الحسن لما حدث فيها دون أن يحرك ساكنا لمد يد العون لها، وسهل هذا الأمر على الغزاة احتلال الجزيرة.

كانت لظروف صقلية وما أصابها من مشاكل على المستوى الداخلي والخارجي[٢٠٨] التأثير الواضح على أفريقية التي شملتها الاضطرابات فحدثت بها ثورات ضد النورمان وعلى طول الساحل التونسي ومنها قرقنه عام ٥٥١هـ/١١٥٨م، وأبدى أهلها مقاومة تكللت بالنجاح قبيل وصول الموحدين وإخراجهم من البلاد عام ٥٥٥هـ/١١٥٨م منهين بذلك وجود النورمان على الأرض العربية في أفريقية[٢٠٩].

النتائــج:

توصل البحث إلى جملة من النتائج التالية:

١. كشفت الدراسة عن حالة الضعف والانقسام التي كانت يعيشها المسلمون في جزيرة صقلية والتي سهلت على النورمان احتلالها عام ٤٨٤هـ/١٠٩١م ، فاستغلوا انصراف تميم بن المعز عنهم بمشاكل بلاده الداخلية، فأخذوا يتغلبون تدريجيا على مدن صقلية الواحدة تلو الأخرى حتى تم الاستيلاء على كافة مدن الجزيرة من أيدي المسلمين بعد صمودهم في وجه المغيرين ثلاثين عاماً، وبعدها جاءت المرحلة الثانية من تنفيذ خطتهم باحتلالهم مدن الساحل الأفريقي.

٢. بينت الدراسة عن ضعف جبهة المغرب العربي بسبب صراع أمرائها فيما بينهم، الأمر الذي سهل على النورمان احتلال اغلب مدن الساحل الإفريقي من طرابلس شرقا حتى نهاية الساحل التونسي غربا، ودامت تبعية تلك المدن أربعة عشر عاما (٥٤١-٥٥٥هـ/١١٤٦-١١٦٠م) وخلالها تم دفع الجزية لرجار الثاني.

٣. أبدى النورمان تسامحا مع مسلمي صقلية واعتمد عليهم رجار الأول في جيشه واستمر ذلك في عهد رجار الثاني الذي عين العرب المسلمين في المناصب السامية في دولته، لذلك وصف بأنه سلطان عربي يحمل تاج لملوك الإفرنج.

٤. تولى ولاة وقضاة المدن إدارة شؤونها الإدارية في حين صات المهدية المركز الأول لإدارة الممتلكات التابعة للنورمان في أفريقية وذلك عام ٥٤٣هـ/١١٤٨م، وفيها تم ضرب عملة عربية جديدة وهي تقليد لعملة الفاطميين ولكنه وضع عليها اسم رجار ولقبه[٢١٠] وشاراته متبعا بذلك سنن المسلمين[٢١١].

٥. شجع رجار الثاني الهجرة إلى المدن المحتلة فهاجر إليها عدد من المستثمرين وذلك لغرض الاستيطان، وهي نزعة استعمارية مبكرة وامتداد لنزعة الحروب الصليبية في المشرق والتي قامت بقصد استعمار المشرق العربي استعمارا استيطانيا ، وكان لهؤلاء المهاجرين منح وامتيازات ،فقد منحهم مساكن وأراضي زراعية وقروض مالية، كما حاول النورمان طرد أهالي المدن المحتلة إلى الصحراء.

٦. لابد من الإشارة إن من نتائج الاحتلال ظهور طبقة حاكمة تتمثل بالنورمان وعملائهم، وطبقة محكومة تتمثل بأهالي المدن المحتلة، إذ كان قائد الحامية مسؤولاً عن الدفاع والأمن الداخلي، كما نتج عن الاحتلال ربط تلك المدن بالاقتصاد النورماني، فقد فرضوا على الأهالي الجزية كما أخذوا الخراج على الأراضي وفي هذا المعنى يذكر ابن دينار قائلاً: ((وجبى [رجار الثاني] خراج رعاياه برفق منه وإحسان واستمال الناس وسار فيهم سيرة حعام))[٢١٢].

٧. سكان المدن المحتلة قد تصدوا للاحتلال النورماني بل قاوموه بانتفاضات منها انتفاضة صفاقس ٥٥١هـ/١١٥٦م وانتفاضة جربة عام ٥٥٣هـ/١١٥٨م وغيرها وشجعهم على ذلك الانتصارات الموحدية في المغرب، إذ كان لهم دافع مهم بعثت في أنفسهم أملا بأنهم يستطيعون الثبات مستمدين منهم قوة الروح المعنوية فضلا عن ظلم النورمان وتدخلهم في شؤونهم الداخلية والدينية ، وهكذا جاء تحرير المهدية ومن ثم مدن الساحل الإفريقي على يد عبد المؤمن بن علي وتم توحيد المغرب العربي.

٨. لم يحرك الفاطميون في مصر ساكنا تجاه الغزو النورماني للساحل الإفريقي بل سعوا بدل ذلك إلى تأييد هذا الغزو، ويتضح ذلك جليا من خلال موافقة الخليفة الفاطمي الحافظ بالله للاحتلال النورماني لجزيرة جربة عام ٥٢٩هـ وربما السبب في ذلك يعود إلى انشغال الفاطميين بالحروب الصليبية في جهة الشرق من ناحية فضلا عن حرص الدولة الفاطمية على الاحتفاظ بعلاقات جيدة مع النورمان لضمان حرية الملاحة في البحر المتوسط من ناحية أخرى، وبذلك سمت المصالح الخاصة على رابطة الدم والدين.

٩. وأخيرا تلقى النورمان ضربة موجعة على يد زعيم الدولة الموحدية عبد المؤمن بن علي الذي استطاع تحرير كامل الساحل الأفريقي من الاحتلال النورماني الذي انسحب إلى صقلية، واحكم عبد المؤمن بن علي قبضته على جميع بلاد المغرب العربي بدون منازع عام ٥٥٥هـ/١١٦٠م، ولم يكتف بذلك بل أجبر زعيم النورمان على دفع الجزية للموحدين.

المصادر والهوامش

[١]- أقام بني يحيى إمارتهم في تلمسان واستأثر الحماديون بباقي المغرب الأوسط في حين انفرد بني خزرون الزنتايون بطرابلس ونواحيها. ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم(٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، ط٣، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٠م، ١٠١/٨.

[٢]- بني زيري: يعودن الى مناد بن منفوس بن صنهاج وهم أهم ممثلوا صنهاجة في أفريقية في أواخر القرن الثالث الهجري وأوائل القرن الرابع الهجري وعلى يدهم ظهرت الشهرة الصنهاجية حيث ناصر بكين بن زيري المنصور الفاطمي في حربه مع أبي يزيد، ثم تعين بكين (يوسف) بن زيري بن مناد حاكما على أفريقية، وهو أول شخصية مغربية تولت الحكم بصورة شرعية. ابن خلدون، عبد الرحمن(ت٨٠٨هـ)، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت،٢٠٠٦م، ج٦/ص١٨٣؛عبد الحميد، عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٩٠م، ٢٩٢/٣.

[٣]- بني حماد: أسرة مغربية تقطن المغرب الأوسط (الجزائر وتونس): ينظر: أتوري، روسي، ليبيا منذ الفتح العربي حتى عام ١٩١١م، ترجمة: خليفة محمد التليسي، بيروت، ١٩٧٤م، ص٨٤؛ إدريس، الهادي روجي، الدولة الصنهاجية، ترجمة: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٢م، ج٢/٩٨.

[٤]- ابن الأثير، الكامل، ١٠١/٨.

[٥]- استغل فلفل بن سعيد بن خزرون الصراع الدائر بين الزيريين والفاطميين لصالحه وتمكن من الاستيلاء على حكم طرابلس عام ٣٩١هـ/١٠٠٠م، واستهل فلفل عهده بالاعتراف بالسلطة الفاطمية في خطوة لإعطاء الشرعية لحكمه فقبل الخليفة الحاكم بأمر الله طاعته، وقبول الطاعة يعني اعتراف الدولة الفاطمية بشرعية حكمه على طرابلس. روسي، ليبيا ، ص٧٧؛ عبد الحميد، تاريخ المغرب ، ٣٢٠/٣.

[٦]. بدأت الهجرة الهلالية سنه ٤٣٧هـ/ ١٠٤٥ بعد ولاية الباروري الوزارة بالقاهرة، وسوء العلاقات مع المعز بن باديس، وتوليه زعماء الهلالية لإعمال أفريقية التي وصلوا إليها عام ٤٤٣هـ/ ١٠٥١م وتقدمهم إلى القلعة، ثم دخولهم الحرب مع الزنانية بقيادة الوزير أبي سعده خليفة اليفرني، وذلك في الوقت الذي كان فيه الصنهاجيون من الملثمين من لمتونه وحسونة ودكالة يقومون بنهضتهم وإقامتهم لدولتهم المرابطية. عبد الحميد، تاريخ المغرب، ١٢/٣.

[٧]- ابن عذارى، أبو العباس أحمد (كان حياً عام ٧١٢هـ)، البيان المغرب في إخبار الأندلس والمغرب، ط٢، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٠م، ص١٢٨.

[٨]- هي الواقعة التي وقعت بين قبائل بني هلال والمعز بن باديس وسميت وقعة جبل حيدران عام٤٤٤هـ/١٠٥٢م قرب قابس وفيها مالت الكفة للهلاليين، بعد إن خانته كل من زناته لإعماله السابقة معها في برقة وكذلك صنهاجة. نصر الله، سعدون، تاريخ العرب السياسي في المغرب، دار النهضة العربية، بيروت، ٢٠٠٣م، ص٢٣٥.

[٩]- الطيبي، أمين توفيق، بنو هلال ودورهم في الجهاد في أفريقية والأندلس، مجلة البحوث التاريخية، العدد ١، مركز الجهاد الليبي، ١٩٨١م، ص٩.

[١٠]- ابن عذارى، البيان المغرب، ٢١٩/١ وما بعدها؛ سالم، السيد عبد العزيز، المغرب الكبير، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م، ٦٧٣/٢.

[١١]- سالم، المغرب الكبير، ٦٧٣/٢؛ الغينمي، عبد الفتاح مقلد، موسوعة المغرب العربي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٤م، ١١٧/٤.

[١٢]- عبد الوهاب، حسن حسني، ورقات عن الحضارة بأفريقية التونسية، ط٢، مكتبة المنار، تونس، ١٩٨١م، ٤١٦/٢.

[١٣]- ضرب حموين فليل المتغلب على صفاقس في مدة المعز بن باديس دينارا عام ٤٩٩هـ/١٠٥٩م وكلاهما يحمل اسم مدينة صفاقس، أما بنو خراسان المستبدون بمدينة تونس وهم من اكبر الطوائف المختليين فانه لا يعلم شيء عن مسكوكاتهم. عبد الوهاب، ورقات، ٤١٥/٢.

[١٤]- مدينة أفريقية، وهي جزيرة متصلة بالبر كهيئة كف بزند، وهي منسوبة الى المهدي، وبينه وبين القيروان مرحلتان، وتنسب اليها الثياب السوسية المهدوية. للمزيد ينظر: الحموي، معجم، ج٥/ ٢٢٩.

[١٥]- Goitein, S.D.A., Mediterranean Socity, California, UAS ,1978, Vol.1, p.235.

[١٦]- ابن الأثير، الكامل ، ١١/ ١٤٥.

[١٧]. سالم، المغرب الكبير، ٢/ ٦٧٣.

[١٨]- الغنيمي، موسوعة المغرب، ٧٧/١.

[١٩]- رجار الثاني (٥٤٠-٥٤٨هـ/١١١٨-١١٥٤م) أشهر حكام صقلية في عهد النورمان وأبرزهم، تميزت سياسته بالتسامح نسبيا مع مسلمي صقلية وهي استمرار لسياسة أبيه رجار الأول (ت ٤٩٤هـ)، واستلم الحكم من أمه سنه ٥٠٤هـ/١١١١م التي كانت وصية عنه. أحمد، تاريخ صقلية، ص٦٤؛ Simith, Medieval Sicily, p.24.

[٢٠]- أحمد، عزيز، تاريخ صقلية الإسلامية، ترجمة: أمين توفيق الطيبي، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ص٦٥.

[٢١]- وهو من الشخصيات البارزة في أوربا حاول اجراء بعض التحالفات التحالف في أوربا، وبعد وفاة أخيه جيسكارد قسّم ممتلكاته في صقلية وايطاليا بين إفراد أسرته وأصحابه ، توفي عام ٤٩٥هـ/١١٠١م وقد بلغ السبعين من عمره. أحمد، عزيز، تاريخ صقلية الإسلامية، ترجمة: أمين توفيق الطيبي، الدار العربية للكتاب، تونس، ليبيا، ١٩٨٠م، ص ص٦٣-٦٤.

[٢٢]- أحمد، تاريخ صقلية، ص ص٦٣-٦٤.

[٢٣]- توفيق، عمر كمال، المجتمع العربي الإسلامي في بلرم، مجلة عالم الفكر، مجلد١٤، العدد ٤، الكويت، ١٩٨٤م، ص١١٠٢.

[٢٤]- Daniel, N., The Arabs and Mediaeval Europe, London, 1975, p.153 .

[٢٥]- بلرم: يقول عنها الحموي: (بفتح أوله وثانيه، وسكون الراء وميم، ... وهي أعظم مدينة في جزيرة صقلية في بحر المغرب على شاطئ البحر). معجم البلدان، ١/٤٨٣-٤٨٤.

[٢٦]- Ibid, p.148 .

[٢٧]- الطيبي، أمين توفيق، دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ١٩٨٤م، ص٤٧.

[٢٨]- المصدر نفسه، ص ص٤٧-٤٨.

[٢٩]- وهو عبد الحليم بن عبد الواحد أفريقي الأصل صقلي الدار. أماري، ميشيل، المكتبة العربية نصوص في التاريخ والبلدان والتراجم، جمعها وحققها: ميشيل أماري، د.م، د.ت، ص٥٨٢.

[٣٠]- طبرمينة: حصن ومدينة على ساحل صقلية شمال قطانية، وكان هذا الحصن مصدر قلق للنورمان لأنهم يتلقون الدعم والتشجيع من الإمارة الزيرية في المهدية، وبالمقابل كان جنود زيري يغيرون على سواحل ايطاليا الجنوبية. ريتستيانو، أمبرتو، النورمان وبنو زيري من الفتح النورماني لصقلية حتى وفاة رجار الثاني (٤٥٣-٥٤٨هـ/١٠٦١-١١٥٤م)، مجلة الآداب، جامعة القاهرة، السنة الثانية، ١٩٤٩م، ص ص١٧٨-١٧٩.

[٣١]- اطرابنش: حصن ومدينة على ساحل صقلية الغربي، ومنها يقلع الى أفريقية، وكانت مشهورة باستغلال المرجان. الحموي، معجم البلدان، ج١/ص٢١٨؛ Smith, D. M., Medieval Sicily, London, 1969, p.24, p.133

[٣٢]- تنسب إلى بكين بن زيري الذي اختاره الخليفة الفاطمي المعز ليخلفه في المغرب، وكان موفقا في ذلك لان بكين كان رجل الساعة لما يملكه من الولد والقبيلة، وسماه اسماً إسلامياً (يوسف) وكنيته العسكرية أبو الفتوح ولقبه مدنيا ناصر الدولة، واستطاع من تكوين أسرة ملكية توارثت الحكم. ينظر: ابن خلدون، عبد الرحمن(٨٠٨هـ)، العبر، بيروت، ١٩٧٩م، ٦/١٥٥؛ عبد الحميد، تاريخ المغرب، ٣/٢٩٢-٢٩٣.

[٣٣]- اقترب جنود تميم بن المعز من جزيرة صقلية ولكنهم لم يغيروا عليها بل انقضوا على مدينة نيقوطره في قلورية واخذوا بعض الأسرى ورجعوا إلى قواعدهم في أفريقية، ريتستيانو، امبرتو، النورمان وبني زيري من الفتح النورماني لصقلية حتى وفاة رجار الثاني (٤٥٣-٥٤٨هـ/١٠٦١-١١٥٤م). مجلة الآداب، جامعة القاهرة، السنة الثانية، ١٩٤٩م، ص ص١٧٨-١٨٠.

[٣٤]- أعاد تميم بن المعز الكرّة في عام ٤٦٨هـ/١٠٧٥ حيث حاصروا مازر ولكن هذا الحصار لم يدم سوى أربع وعشرين ساعة غادر بعده جنود المسلمين الجزيرة وعادوا إلى أفريقية. ريتستيانو، النورمان، ص ص١٧٨-١٨٠.

[٣٥]- Smith, Medieval Sicily ,p.15.

[٣٦]- ريتستيانو، النورمان، ص ص١٧٩-١٨٠.

[٣٧]- اشترك في حركة إنزال الجنود في زويلة كل من بيزا وجنوه والتي كانت تهدف إلى إنزال ضربة بسفن العرب المسلمين في البحر المتوسط. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق: خيري سعيد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، د.ت، ١٣/٩.

[٣٨]-كان بردويل نسيب رجار الأول، ولهذا أراد مشاركته في أفريقية ولكن يبدو إن المصالح الاقتصادية فوق كل شيء. ابن الأثير، الكامل، ١٣/٩.

[٣٩]- المصدر نفسه، طبعة القاهرة، ١٣/٩.

[٤٠]- المصدر نفسه، طبعة القاهرة، ١٣/٩.

[٤١]- المصدر نفسه، طبعة القاهرة، ١٣/٩.

[٤٢]- المصدر نفسه، طبعة القاهرة، ١٣/٩.

[٤٣]- طليطلة: مدينة كبيرة ذات خصائص محمودة بالأندلس يتصل عملها بعمل وادي الحجارة من اعمال الأندلس. الحموي، معجم البلدان، ٣٩/٤-٤٠.

[٤٤]- ابن الأثير، الكامل، طبعة القاهرة، ١٣/٩؛ مورينو، مارينو ماريو، المسلمون في صقلية، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٨٠م، ص٢٠.

[٤٥]- Norwich, J. J., The Kingdom in the Sun, London, 1976, p.154.

[٤٦]- التليسي، خليفة محمد، حكاية مدينة، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ١٩٧٤م، ص٤٧.

[٤٧]- تحالف رجار الثاني مع ريموند الثالث كونت برشلونة والفونس السابع ملك قشتالة وهم يشنون حربا صليبية على المسلمين في الأندلس وبالفعل اخذ ملك قشتالة رجار بأسطول كبير تولى جورج الإنطاكي قيادته. للمزيد ينظر: مؤنس، حسين، معالم تاريخ المغرب والأندلس، القاهرة، ١٩٨٢م، ص٣٧٢ وما بعدها؛ Norwich, J.J., The Kingdom in the Sun , p.297.

[٤٨]- روسي، ليبيا، ص٢٩.

[٤٩]- ظل الذهب السلعة السودانية المهمة لدى سلع الساحل الأفريقي وغيرهم لقرون عديدة، ويذكر المسعودي(ت٣٤٦هـ)، هذه التجارة تم تبادلها بالسلع المجلوبة من الشمال. إخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمان، مطبعة عبد الحميد أحمد حنفي، القاهرة، ١٩٣٨م، ص٦٥.

[٥٠]- وهي التجارة الثانية بعد الذهب من حيث الأهمية، وكان تجارها يكسبون الإرباح الطائلة من هذه التجارة لتفاوت الأسعار ما بين الشراء والبيع في المغرب. الوزان، الحسن بن معروف، وصف أفريقيا، ط٢، بيروت، ١٩٨٣، ص١٦٩.

[٥١]- Smith, Medieval Sicily, pp.133-134؛ الوزان، الحسن بن محمد، وصف أفريقيا، تعريب: محمد حجي ومحمد الأخضر، ط٢، الرباط، ١٩٨٢م، ٢٩١/٢ وما بعدها.

[٥٢]- كان ذهب أفريقية يدعم النقد في صقلية، ولأجله ظهرت العملة المعروفة بـ(دوقة) نسبة إلى (دوق) أي أمير وهو لقب رجار الثاني قبل تسميته بالملك. Smith, Medieval Sicily, pp.29-30.

[٥٣]- مورينو، المسلمون، ص٢٠؛ Smith, Medieval Sicily, pp.29-30.

[٥٤]- البرغوثي، عبد اللطيف محمد، تاريخ ليبيا الإسلامي من الفتح الإسلامي حتى بداية العصر العثماني، دار صادر، بيروت، ١٩٦٧م، ص١٧٣.

[٥٥]- عباس، إحسان، تاريخ ليبيا منذ الفتح حتى مطلع القرن التاسع الهجري، دار صادر، بيروت، ١٩٦٧م، ص١٧٣.

[٥٦]- كانت هذه الحملة موجهة ضد مراكب المسلمين الغائرة على نابلي وسالرنه. أحمد، تاريخ صقلية، ص٦٥.

[٥٧]- جورج الإنطاكي رجلاً نصرانيا من أصل يوناني يتبع الكنيسة الأرثوذكسية، تعلم اللغة العربية ويرع في الحساب في الشام، ثم هاجر مع أبيه إلى أفريقية والتحق بخدمة الأمير الزيري تميم بن المعر وصار مسؤول الشؤون المالية في عهد تميم، وبعد وفاة الأخير عام ٥٠١هـ/١١٠٧م خاف جورج من ابنه يحيى بن تميم فاتصل بصاحب صقلية سراً وفر من المهدية وعمل سفيراً ومقدماً للأسطول. Smith, Medieval Sicily, p.25.

[٥٨]- للمزيد من المعلومات ينظر: ابن الأثير، الكامل، ٢٢١/٨، ٣٤٨، ٣٥٦؛ ابن عذارى، البيان، ٢٧٥/١؛ سالم، السيد عبد العزيز، المغرب الكبير، الدار القومية للطباعة والنشر، الإسكندرية، ١٩٦٦م، ٦٥١/٢، ٢٨٤.

[٥٩]- عن سيطرة النورمان على صقلية ينظر: الدوري، تقي الدين عارف، صقلية علاقاتها بدول البحر المتوسط الإسلامية من الفتح العربي حتى الغزو النورمندي (٢١٢-٤٨٤هـ/٨٢٧-١٠٩١م)، دار الرشيد للنشر، بغداد،١٩٨٠م، ص٢٦٩-٢٧٢؛ أحمد، تاريخ صقلية ،١٩٨٠م، ص٥٧ وما بعدها.

[٦٠]- هوجمت المهدية من قبل جنوه وبيزا في عام ٤٨٠هـ/١٠٨م وتم احتلالها والاستقرار بها بعض الوقت، وبارك رجال الدين المسحيين وعلى رأسهم البابا فكتور الثالث الذي شجع على تكوين فريق من السفن الجنوية والبيزية للإغارة على سواحل أفريقية وكانت نتيجة الغزوة توقيع صلح يتضمن دفع تميم لهم مائة إلف دينار. الغنيمي، موسوعة المغرب، ٧٧/٤.

[٦١]- هو السلطان يحيى بن تميم بن المعز بن باديس بن منصور بن بكين بن زيري. الغنيمي، موسوعة، ٧٧/٤.

[٦٢]- في عام ٥٠٣هـ/١١٠٩غار الأسطول الزيري على بلاد الروم، وتكرر ذلك عام ٥٠٤هـ/١١١١م بعد أن عاد بسبي كثير. الغنيمي، موسوعة المغرب، ٧٧/٤.

[٦٣]- الغنيمي، موسوعة، ٧٧/٤.

[٦٤]- احتالوا عليه إخوته ودخلوا البلاد بصفة غرباء عن البلد وان لهم معرفة بعلم الكيمياء الذي كان السلطان يحيى مولعا به وشغوفا إلى معرفة كل جديد في هذا العلم، ودخلوا عليه متنكرين بزي المغاربة فهجموا على الوزير والحاجب وقتلوهما ثم هجموا عليه وأثخنوا فيه الجراح حتى مات عام ٥٠٩هـ/١١١٥م. الغنيمي، موسوعة الغرب، ٧٨/٤.

[٦٥]-المعز بن باديس بن منصور بن بكين بن منادين منفوش الصنهاجي (٤٠٦-٤٥٤هـ/١٠١٥-١٠٦٢م). الغنيمي، موسوعة الغرب، ٤٠/٤.

[٦٦]- الغنيمي، موسوعة الغرب، ٧٩/٤.

[٦٧]- ولد علي عام ٤٩٩هـ/١١٠٥م وكان أبوه قد قلده صفاقس، تولى حكم الإمارة في المهدية إلى وفاته. عنه ينظر: ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد(ت٦٢٦هـ)، وفيات الأعيان وإنباء أبناء الزمان، دار التراث العربي، بيروت، ١٩٩٧م، ٣٠٩/٣-٣١٠.

[٦٨]- الغنيمي، موسوعة، ٨٠/٤.

[٦٩]- أحمد، تاريخ صقلية، ص٦٥.

[٧٠]- هو رافع بن مكي بن كامل بن جامع الرياحي، استلم الحكم بعد أبيه مكي. التجاني، عبد الله ، رحلة التجاني، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، ط٢، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ١٩٨١م، ص ص٩٧-٩٨.

[٧١]- قابس: مدينة بين طرابلس وسفاقس ثم المهدية على ساحل لبحر فيها نخل وبساتين غربي طرابلس الغرب وهي ذات مياه جارية من اعمال أفريقية. الحموي، معجم البلدان، ٢٨٩/٤-٢٩٠.

[٧٢]- تمكن رافع بن مكي من بناء نواة لأسطول بحري،وحرص على بناء سفينة ضخمة بساحل قابس، وكانت هذه السفينة سبباً في إشعال نار الفتنة بين علي بن يحيى وبين رافع حتى وجد علي في أسطول رافع خطراً عليه حيث سيشاركه البحر فقال (لا يكون لأحد من أهل أفريقية إن يناوئني في أجزاء المراكب في البحر). التجاني، رحلة، ص٩٥.

[٧٣]- رحلة، ص٩٨.

[٧٤]- المصدر نفسه، ص٩٩.

[٧٥]- سالم، السيد عبد العزيز، أحمد مختار العبادي، البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٩م، ص٢٢١.

[٧٦]- كان النفط قد اكتشف في جزيرة صقلية في بلدة لياج على ساحل صقلية الشرقي ويقول القز ويني (أنها أبار ثلاث يخرج منها من أول ربيع إلى أخره زيت النفط). القز ويني، زكريا بن محمد ، آثار البلاد وأخبار العباد، د.م، د.ت، ص٢١٦؛ كتب ليو (عن النار الإغريقية) ومنها كانت تستخدم فقال: (وهي مزيج من كبريت وبعض الدهان في شكل سائل يصبونه في أسطوانة نحاسية ... ويطلقونه بشكل كرات مستقلة أو قطع من الكتان المعجون بالنفط فيقع على السفن فيحرقها). ماهر، سعاد، البحرية في مصر الإسلامية، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت، ص٢٣٢.

[٧٧]- القيروان: يقول عنها الحموي بأنها (مدينة عظيمة بأفريقية ... وليس بالغرب مدينة اجل منها ... وهي مصرت في الإسلام في أيام [الخليفة] معاوية). معجم البلدان، ٤/٤٢٠.

[٧٨]- التجاني، رحلة، ص٩٩.

[٧٩]- الكامل، ٩/١٧٦- ١٧٧.

[٨٠]- البيان، ١/٣٠٧.

[٨١]- اجتمع شيوخ دهمان وقروا اقتسام البلاد وتسليم الإمارة في القيروان إلى رافع، ينظر: ابن خلدون، عبد الرحمن، العبر وديوان المبتدأ والخبر،دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٦م، ٦/١٩٧.

[٨٢]- الأمير ميمون بن زياد الصخري من أمراء العرب، ويرتبط مع علي بصداقه قوية. ابن خلدون، العبر، طبعة دار الكتب العلمية، ٦/١٩٧،١٩٠.

[٨٣]- ابن خلدون، العبر، ٦/١٩٧، ورجعت قابس إلى بني جامع.

[٨٤]- الكامل، ٩/١٧٧.

[٨٥]- استقر في المهدية بعثة تجارية وذلك قبل وفاة يحيى بن تميم عام ٥٠٩هـ/١١١٦م، حين قامت سفن الطرفين برحلات ودية لإغراض تجارية عبر البحر. Norwich, J. J., The Normans in the South, London, 1981, p.294.

[٨٦]- البيان، ١/٣٠٧.

[٨٧]- Norwich, The Normans, p.296.

[٨٨]- قام أبو عبد الله ميمون قائد أسطول علي بن يوسف بن تاشفين بالإغارة على صقلية عام ٥١٦هـ/١١٢م وافتتح مدينة نقوطرة من إعمال رجار وسبى نساءها وأطفالها وسلب جميع ما وجده فيها. ابن عذارى، البيان، ١/٣٠٨.

[٨٩]- ابن عذارى، البيان، ١/٣٠٨.

[٩٠]- القيرواني، محمد بن أبو دينار، المؤنس في إخبار أفريقية وتونس، تحقيق: محمد شمام، المكتبة العتيقة، تونس، ١٩٦٧م، ص٩٢.

[٩١]- وهو الفونس السابع ملك قشتالة، وكان رجار الثاني قد تزوج من ابنته جلويرة..Norwich, The Normans , p.297

[٩٢]- ويبدو إن جورج الإنطاكي كان القائد العام للأسطول ويساعده عبد الرحمن بن عبد المعروف بـ(كريستوولوس). Norwich, The Normans, p.297.

[٩٣]- قوصرة: وهي جزيرة في بحر الروم بين المهدية وجزيرة صقلية، مفتحها المسلمون أيام الخليفة معاوية. الحموي، معجم البلدان، ٤/٤١٣.

[٩٤]- Norwich, The Normans, p.292.

[٩٥]- وهي جزيرة على بعد (١٠) أميال من المهدية. التجاني، رحلة، ص ص٣٣٥-٣٣٦.

[٩٦]- استولى النورمان في (٢) جمادي الآخرة على قصر الديماس بعد حصار دام ستة عشر يوماً. ابن عذارى، البيان، ١/٣٠٩.

[٩٧]- استعان الحسن بن علي بالقبائل العرب الهلالية فقدموا افواجاً بنية خالصة في الجهاد، إذ ضربوا خيامهم قرب المدينة، وأخذت كل الاحتياطات لمواجهة هذا الهجوم الغاشم، ويذكر لنا شاعره ابن حمديس اسم قائده أبي إسحاق إبراهيم فيقول:

وقائدك الشهم الذي كان بينهم صبيحة لاقاهم علي يده النصر

روا بأبي إسحاق سحقاً لجمعهم فايرا مهم نقص ونظمهم نثر

ابن حمديس، عبد الجبار، ديوان ابن حمديس، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠م، ص٢٥٤.

[٩٨]- التجاني، رحلة، ص٣٣٦؛ ابن عذارى، البيان، ١/٣٠٩.

[٩٩]- ابن حمديس، ديوان ابن حمديس، ص٢٥٤.

[١٠٠]- يحيى بن المعز بن باديس بن المنصور بن الناصر بن علنّاس بن حماد صاحب بجاية. التجاني، رحلة، ص٣٣٩.

[١٠١]- تحالف رجار الثاني مع ريموند الثالث كونت برشلونة وغيرهم. أحمد، تاريخ صقلية، ص٦٦.

[١٠٢]- التجاني، رحلة، ص٣٣٩.

[١٠٣]- المصدر نفسه، ص٣٣٩.

[١٠٤]- أحمد، تاريخ صقلية، ص٦٦.

[١٠٥]- المؤنس، ص٩٢.

[١٠٦]- Norwich, The Kindom in the Sun, p.154.

[١٠٧]- ابن الأثير، الكامل، ٩/٣٦٢؛ التجاني، رحلة، ص٧٥؛ ابن خلدون، العبر، ٥/٢٤٠.

[١٠٨] - المؤنس، ص٩٥.

[١٠٩]. ومن هؤلاء جبلة بن حمود الصفاقسي مع أولاده السبعة الذي ثار من مسجده بنهج الدريبة وعباس الجديد المغربي من مسجده في اتجاه الشمال وغير هؤلاء من شيوخ العلم، لمقاومة الغزاة النورماني. الكافي، أبو بكر عبد، تاريخ صفاقس، صفاقس، ١٩٦٦م، ١/٣٠، ١٠٩.

[١١٠]. القارة الأفريقية وجزيرة الأندلس، مستخرج من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، تح إسماعيل العربي، ودار المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨١م، ص ص١٨١-١٨٢.

[١١١]. وهو من أهل العلم والدين في المدينة. ابن خلدون، العبر، ٥/٢٤١.

[١١٢]. التجاني، رحلة، ص٧٥؛ ابن خلدون، العبر، ٥/٢٤١ مع شي من الاختلاف.

[١١٣]. ابن الأثير، الكامل، ٩/٤١٠.

[١١٤]. ابن الأثير، الكامل، ٩/٤١٠؛ التجاني، الرحلة، ص٢٥٧.

[١١٥]. ابن الأثير، الكامل، ٩/٤١٠-٤١١.

[١١٦]. خلف رجار لثاني ابنه وليام (عليالم) الأول للمدة (٥٤٩-٥٦٢هـ/١١٥٤-١١٦٦م) كان نشطاً ولكنه سلم أموره إلى وزيره ليدير أمور دولته. أحمد، تاريخ صقلية، ص٦٨.

[١١٧]. التجاني، الرحلة، ص٧٥.

[١١٨]. ابن الأثير، الكامل، ٤١١/٩، التجاني، الرحلة ، ص ص٧٥-٧٦.

[١١٩]. ابن الأثير، الكامل، ٤١١/٩.

[١٢٠]. وهي مدينة بأفريقية بناها المهدي عبيد الله وهي بجوار المهدية، إذ سكن هو وحاشيته المهدية وأسكن العامة في زويلة. عنها ينظر: الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت، معجم البلدان، ط٢، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥م، ١٦٠/٣.

[١٢١]. القيرواني، المؤنس، ص٩٤؛ ابن الأثير، الكامل، ٤١١/٩.

[١٢٢]. السلاوي، أبو العباس أحمد بن خالد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتب، الدار البيضاء، ١٩٥٤، ١٣٧/٢.

[١٢٣]. Norwich, The King dom in the Sun , p.125 .

[١٢٤]. دامت تبعة طرابلس للنورمان حوالي اثني عشر عاماً(٥٤١-٥٥٣هـ/١١٤٦-١١٥٨م) وكان يتولى شؤونها أبو يحيى بن رافع بن مطروح التميمي. التليسي، حكاية مدينة، ص٤٨.

[١٢٥]. للتفاصيل ينظر: ابن الأثير، الكامل، ٣٥٦/٩.

[١٢٦]. الحسن بن علي بن يحيى بن تميم بن معز بن باديس الصهاجي. ابن الأثير، الكامل، ٣٦٠/٩.

[١٢٧]. Norwich, Kingdom in the Sun, pp.153-154.

[١٢٨]. يذكر التجاني إن رشيد صاحب فاس هوا لذي عين ولده (محمد) من بعده في حكم صفاقس وقد استبد مولاه يوسف بالأمور، وعندما خرج محمد بن رشيد يوماً لمحاربة عدو له بعد إن ترك ولده الصغير نائباً عنه، ثار عليه يوسف وطرد ولده واتصل برجار الأول في صقلية وطلب منه الإمامة والخلع فأرسل رجار الخلع والعهد مرحباً بطاعته واحتماءه. رحلة، ص١٠٠.

[١٢٩]. ابن الأثير، الكامل، ٣٥٦/٩.

[١٣٠]. القيرواني، المؤنس، ص٩٤.

[١٣١]. ابن الأثير، الكامل، ٣٥٧/٩.

[١٣٢]. المؤنس، ص٩٤.

[١٣٣]. ابن الأثير، الكامل، ٣٥٧/٩، ٣٦٠.

[١٣٤]. Norwich, The Kingdom In The Sun, p .154.

[١٣٥]. جزيرة في بحر الروم بين المهدية وصقلية فتحها المسلمون في أيام معاوية وبقيت في أيدهم إلى أيام الخليفة عبد الملك بن مروان. الحموي، معجم البلدان، ٤١٣/٤.

[١٣٦]. ابن الأثير، الكامل، ٣٦٠/٩.

[١٣٧]. المصدر نفسه ، ٣٦٠/٩.

[١٣٨]. المصدر نفسه، ٣٦١/٩.

[١٣٩]. التجاني، رحلة، ص٣٤.

[١٤٠]. عبد المؤمن بن علي بن علوي سلطان المغرب يلقب بأمير المؤمنين الكومي القيسي المغربي، ولد بإعمال تلمسان وكان أبوه يصنع الفخار ولد عام سبع وثمانين وأربعمائة. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء،

تحقيق: شعيب الاتاوؤط، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨١م، ٣٦٦/٢٠-٣٦٧؛ ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، البداية والنهاية، تحقيق: محمد بيومي وآخرون، مكتبة الإيمان، المنصورة، د.ت، ٦٣٢/١٢.

[١٤١]. مراكش: يذكرها الحموي (أعظم مدينة بالمغرب واجلها وبها سرير ملك بني عبد المؤمن، وهي في البر الأعظم ... وكان أول من اختصها يوسف بن تاشفين من الملثمين الملقب بأمير المؤمنين في حدود سنة٤٨٠هـ). معجم البلدان، ٩٤/٥.

[١٤٢]. ابن الأثير، الكامل، ٤٣٣/٩.

[١٤٣]. التجاني، رحلة، ص٣٤٥.

[١٤٤]. المصدر نفسه، ص٣٤٧.

[١٤٥]. ابن الأثير، الكامل، ٤٣٣/٩.

[١٤٦]. مكث عبد المعرض بن علي في مدينة تونس ثلاث أيام قضى خلالها على أسرة بني خراسان التي كانت تحكمها أكثر من ربع قرن ثم رتب أمورها ووضع عليها أبا محمد بن عبد السلامي الكومي وفيه أشياخ من الموحدين. التجاني، رحلة، ص ص٣٤٥-٣٤٧؛ المراكشي، عبد الواحد، المعجب في تلخيص إخبار المغرب، تحقيق: محمد سعيد العربان ومحمد العربي، ط٧، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٧٨م، ص ص٣٣٣-٣٣٤.

[١٤٧]. الزركشي، محمد، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق: محمد ماضور، ط٢، المكتبة العتيقة، تونس، ١٩٦٦م، ص١١.

[١٤٨]. ابن الأثير، الكامل، ٤٣٤/٩؛ التيجاني، الرحلة، ص ص٣٤٧-٣٤٨.

[١٤٩]. المعجب، ص٣٣٤.

[١٥٠]. وهو من أهل جربة أسره النورمان، واعتقه الملك وشغل منصباً سامياً، عرف بطرس(بيترو) وتولى قيادة الأسطول، ولما أحفق في إنقاذ المهدية وعاد إلى بلرم اتهمه خصوم من حزب النبلاء بالخيانة،وعنه يقول المؤرخ هوجر فلقندو: (إن بطرس نصراني اسماً وزياً ولكنه مسلم باطناً) إلا أن وليام الأول لم يكترث لهذه الاتهامات ولم يتخذ ضد قائده أي إجراء تأديبي.Norwich, the Kingdom in the Sun, pp.291-292 ؛ الطيبي، أمين، سيرة قائد بحري مسلم من جزيرة جربة، مجله الفصول الأربعة، العدد ٢٠، العام السادسة، طرابلس، ١٩٨٢م، ص ص٤٦-٤٧.

[١٥١]. التجاني، رحلة، ص ص٣٤٨-٣٤٩.

[١٥٢]. المصدر نفسه، ص٣٤٩.

[١٥٣]. ابن الأثير، الكامل، ٤٣٦/٩.

[١٥٤]. ولى عبد المؤمن بن عبد الله محمد بن الفرج الكومي على المهدية عام ٥٥٥هـ/١١٦٠م. التجاني، حلة، ص ص٣٤٨-٣٤٩.

[١٥٥]. ابن الأثير، الكامل، ٣٤٦/٩.

[١٥٦]. يذكر التجاني إن النورمان اخذوا سوسة من الأمير جبارة بن كامل بن سرحان الفادعي الهلالي الشهير بكرمة. رحلة، ص٣٠. ويبدو إن الوالي الاسمي هو علي بن الحسن والمتنفذ في المدينة هو جبارة الهلالي.

[١٥٧]. ابن الأثير، الكامل، ٣٦٢/٩.

[١٥٨]. عين عبد المؤمن عبد الحق بن علناس الكومي حافظاً لها. للمزيد ينظر: التيجاني، رحلة، ص٣٠.

[١٥٩]. التجاني، رحلة، ص٣٠. ولم يذكر التيجاني تاريخ ثورة سوسة ولا تاريخ غزو النورمان لها للمرة الثانية أو متى خلص عبد الحق بن علناس من الأسر ومن هو الذي خلصه أو افتداه من الأسر.

[١٦٠]. نحو قوله: (فلا يدخلون تحت طاعة سلطان). ابن الأثير، الكامل، ٢٩٧/٩.

[١٦١]. وهو علي بن يحيى، التجاني، رحلة، ص١٢٥.

[١٦٢]. التجاني، رحلة، ص ص١٢٥-١٢٦.

[١٦٣]. الكامل، ٢٩٧/٩.

[١٦٤]. التيجاني، رحلة، ص ص١٢٥-١٢٦.

[١٦٥]. المؤنس، ص٩٣.

[١٦٦]. Idris, H.R , La Barberia Orientale sous les Zirides, Paris, 1959, pp.345-346.

[١٦٧]. يذكر أبو شامة إن الفرنج الصليبيين استولوا على مركبين في طريقهما من مصر إلى الشام، وكان على ظهرهما أمتعة تشمل (عدد من الأثواب السوسية). أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل، كتاب الروضتين في إخبار الدولتين النورية والصلاحية، القاهرة، ١٩٦٢م، ٥١٧/١.

[١٦٨]. Goiteim, S.D., (Medieval Tunis ia the hub of the meditie- rranean) in Studies in Islamic History and Institions ,London, 1966, p.324.

[١٦٩]. الأعشى في صناعة الإنشا، القاهرة، ١٩٦٣م، ٤٥٩/٦.

[١٧٠]. Canard, M., (Une Latte du Calife Fatimite AL- HAFIZ aroger II) in Miscellaner Orientalia, London, 1973, pp.126-131.

[١٧١]. الطيبي، أمين، العلاقات بين جزيرة جربة وصقلية، مجله البحوث التاريخية مركز الجهاد الليبيين، العدد ١، ليبيا، ١٩٨٤م، ص ص١٤٧-١٤٨.

[١٧٢]. عنها ينظر: الحموي، معجم البلدان٢٥/٤؛ التجاني، رحلة، ص٢٢٤؛ مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق: سعد زغلول عبد الخميس، بغداد، ١٩٨٦م، ص١١٠.

[١٧٣]. مؤلف مجهول، الاستبصار، ص١١٠.

[١٧٤]. تمركز بنو عمومتهم أل حماد في المغرب الأوسط وآخذو يثرون الفتن والقلاقل من حين لآخر، بالإضافة إلى خوفهم من سيطرة قوة معادية على طرابلس وهذا ما حدث عام ٥٤١هـ/١١٤٦م حين احتلها النورمان.

[١٧٥]. مفردها ربط والجمع رباط (فهو دار يسكنها أهل طريق الله. وهو بيت الصوفية ومنزلهم ولكل قوم دار والرباط دارهم). المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، الخطط المقريزية، دار التحرير للطبع والنشر، ١٩٦٧، ٤٢٢/٣-٤٢٣.

[١٧٦]. المعجب، ص٤٩١.

[١٧٧]. ابن غلبون، أبو عبد الله محمد بن خليل، التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الإخبار، تصحيح وتعليق: الطاهر الزاوي، ط٢، طرابلس، ١٩٦٧م، ص٥٠.

[١٧٨]. تاريخ ليبيا، ص٢٤٧.

[١٧٩]. ابن الأثير، الكامل، ٣٣٨/٩؛ البرغوثي، تاريخ ليبيا، ص٣٦٣.

[١٨٠]. الكامل، ٣٣٨/٩.

[١٨١]. أسرة طرابلسية قربها حاكم طرابلس محمد بن خزرون بعد استلامه الحكم عام ٤٨٨هـ/١٠٦٧م وأخذت بالعمل السياسي إلى جانبه واستطاعت إن تسيطر على الأمور في المدينة مستغلة ضعف بني خزرون لدرجة أنها إزاحتهم وصاروا هم حكام المدينة. النائب الأنصاري، المنهل العذب، ص١١٩؛ عباس، ليبيا، ص١٣٧.

[١٨٢]. سالم، البحرية، ص٢١٦.

[١٨٣]. ابن الأثير، الكامل، ٣٤٤/٩.

[١٨٤]. التيجاني، رحلة، ص٢٤١.

[١٨٥]. ابن الأثير، الكامل، ٣٤٩/٩.

[١٨٦]. ابن الأثير، الكامل، ٣٤٩/٩؛ الطرابلسي، أحمد بك الأنصاري، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، لندن، ١٩٨٤م، ص١٢٣.

[١٨٧]. ابن الأثير، الكامل، ٣٤٩/٩.

[١٨٨]. الطرابلسي، المنهل العذب، ص١٢٣.

[١٨٩]. التجاني، رحلة، ص٢٤٢؛ روسي، ليبيا، ص٨٨.

[١٩٠]. يعد محمد بن تومرت مؤسس الدولة الموحدية لأنه وضع الخطوط العريضة التي قامت عليها الدولة منذ مبايعة ابن تومرت عام ٥٢٤هـ أو ٥٢٦هـ. للمزيد ينظر: الصلابي، علي محمد، دولة الموحدين، مكتبة الإيمان، المنصورة، ٢٠٠٤م، ص٢٥٧.

[١٩١]. التجاني، رحلة، ص٢٤١؛ عباس، ليبيا، ص١٧٨.

[١٩٢]. الرغبة في التخلص من التعبئة السياسية للنورمان.

[١٩٣]. كانت الجزية جارحة للشعور الديني عند المسلمين.

[١٩٤]. التجاني، رحلة، ص٢٤٢.

[١٩٥]. المصدر نفسه، ص٢٤٢.

[١٩٦]. أحمد، تاريخ صقلية، ص٦٨ وما بعدها.

[١٩٧]. Norwich, The Norman, p.214.

[١٩٨]. Idris, Berberia, p.400.

[١٩٩]. دفع رجار للمسلمين المناصب الكبيرة وقد شاع بين الناس انه اسلم ويقول عنه (أماري): (أنه سلطان عربي يحمل تاجا لملوك الإفرنج) ولدفع التهمة على نفسه قام ببناء الكنائس، وعاد التشجيع على تنصير المسلمين. الأمين، محسن، مقالات في التاريخ والأدب، بيروت، ٢٠٠١م، ص ص١٥-١٦.

[٢٠٠]. Norwich , The Norman, p.226.

[٢٠١]. عباس، إحسان، العرب في صقلية، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٥م، ص١٨٩.

[٢٠٢]. وهي أعظم مدينة في جزيرة صقلية في بحر المغرب على شاطئ البحر. الحموي، معجم، ٤٨٣/١.

[٢٠٣]. كان محبوباً ولهذا يعرف بالطيب. عنه ينظر: أحمد، تاريخ صقلية، ص٧٠.

[٢٠٤]. المعجب، ص٣٩٩.

[٢٠٥]. وهي جزيرة قرب صفاقس وهي ملتقى السفن القادمة من الإسكندرية والشام وبرقه، فيها أثار كثير. عنه ينظر: البكري، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، ط٢، الجزائر، ١٩١١م، ص٢٠، ص٨٥.

[٢٠٦]. الكامل، ٣٤٨/٩.

[٢٠٧]. المؤنس، ص٩٣.

[٢٠٨]. احتل البيزنطيون مواضع جنوب ايطاليه وزحفت القوات البابوية جنوباً وثار النبلاء الإقطاع المعادون لحزب القصر. الطيبي، العلاقات، ص١٤٨.

[٢٠٩]. المصدر نفسه، ص١٤٨.

[٢١٠] . تلقب رجار الثاني بعدة ألقاب مقلدا بذلك ملوك المسلمين ، فقد تلقب بالمعز بالله وأضاف له لقب ملك أفريقية. عبد الوهاب، ورقات، ص٤٥١.

[٢١١] . المصدر نفسه، ص٤٥١.

[٢١٢] . المؤنس، ص٩٥.